

سلسلة رسائل ترشيد الصَّحوة (٨)

دكتور يوسف القرضاوى

لمبشرات باننصار الاسلام

الناشر
مكتبة وهبة

٤ شارع الجمهورية، عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

المبشرك بانقضاء الاسلام

سلسلة رسائل ترشييد الصَّحوة

(٨)

لمبشرات بانقصار الاسلام

دكتور يوسف القرضاوى

الناشر
مكتبة وهبة

٤ اشاع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تلفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الثالثة

١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م

جميع الحقوق محفوظة

تحذير

جميع الحقوق محفوظة لمكتبة وهبة (للطباعة والنشر). غير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج هذا الكتاب أو أى جزء منه، أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إلكترونية، أو ميكانيكية، أو نقله بأى وسيلة أخرى، أو تصويره، أو تسجيله على أى نحو، بدون أخذ موافقة كتابية مسبقة من الناشر أو المؤلف.

All rights reserved to Wahbah Publisher. No Part of this Publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior written permission of the publisher.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على معلم الناس الخير ، وهادى البشرية إلى الرشد ، وقائد الخلق إلى الحق ، سيدنا وإمامنا ، وأسوتنا وحبيبنا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن أتبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

(أما بعد) ..

فهذه الرسالة تتحدث عن (المبشرات بانتصار الإسلام) وأعتقد أن حديثنا عن (المبشرات) مطلوب - وخصوصاً فى هذه الآونة - لأكثر من سبب :

١ - هو مطلوب ، لأننا مأمورون بصفة عامة أن نبشر ولا نفر ، كما نحن مأمورون أن نيسر ولا نعسر ، فإن النبى ﷺ حينما أرسل معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعرى إلى اليمن أوصاهما بهذه الوصية الموجزة الجامعة : « يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا » ، وكذلك روى صاحبه وخادمه أنس بن مالك أنه أمر الأمة كلها بما أمر به معاذاً وأبا موسى فقال : « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا » .

وأحمد الله أن هذا هو المنهج الذى وفقنى الله إلى التزامه فى الفتوى والدعوة ، وفى مجال الفتوى : التزمت التيسير لا التعسير ، وفى مجال الدعوة : التزمت التبشير لا التنفير . والله الفضل والمنة .

٢ - وهو مطلوب ، لأن المسلمين عامة ، والعاملين للإسلام خاصة ، يمرون بمرحلة عصيبة من مراحل تاريخهم المعاصر ، وتكاد تغلب فى هذه المرحلة عوامل اليأس ، ومشاعر الإحباط ، وهذا الشعور إذا استسلمت له الأنفس ، قتل فيها الهمم ، وخدر العزائم ، ودمر الطموحات ، وهذه المعانى هى التى تحرك الإرادات للعمل ، وبذل الجهد .

ومرد هذا الشعور الأسود إلى الضربات المتلاحقة التى توجه بخبث ومكر - من أعداء الإسلام - إلى الصحوة الإسلامية ، والحركة الإسلامية ، بغية إطفاء نور الإسلام ، ووقف حركته ، وتمويت يقظته ، واستعانوا على ذلك ببعض حكام المسلمين ، الذين خوفوهم من الصحوة ، وحرصوهم على الصفوة ، وأمروهم بضرب الدعوة ، وللأسف استجاب لهم أولئك الحاكمون ، الذين يخافون من انتصار الإسلام أن يحرمهم من شهواتهم ، وأن يجردهم من مكاسبهم المحرمة ، وأن يجرئ عليهم الشعوب ، لتحاسبهم على ما اقترفوا .

٣ - وهو مطلوب ، لأن القوى المعادية للإسلام ، تريد أن تعلن - بل قد أعلنت بالفعل - على الإسلاميين حرباً نفسية ، تيؤسهم

من الأمل فى غد أفضل ، والرجاء فى مستقبل مشرق . وبدأت حملات مسعورة ، تحركها قلوب موتورة ، وتقودها أقدام مأجورة ، وأبواق مأمورة ، تتهم وتلطح وتشوه ، كل ما هو إسلامى ، وتتهم دعاة الإسلام وأبناء الصحوة بالتطرف حيناً ، وبالعنف أحياناً ، وبالإرهاب طوراً ، وبالأصولية أطواراً ، مطلقين على الحركة التى تدعو إلى الإسلام المتكامل - عقيدة وشريعة ، وديناً ودولة - (اسم الإسلام السياسى) ، والإسلام الحقيقى لا بد أن يكون سياسياً .

لهذا كان علينا أن نقاوم هذه الحملات المعادية بسلاح مضاد ، وهو نشر الأمل بانتصار الإسلام ، وإحياء الرجاء فى مستقبله ، وشحن نفوس الجيل الصاعد بهذا الشعاع الذى يبدد ظلمات اليأس ، وغيوم الإحباط .

٤ - وهو مطلوب كذلك ؛ لأن كثيراً من المتدينين يشيع بينهم فكر مغلوط عن (آخر الزمان) وبعبارة أخرى : عن مستقبل الأمة ، وهو مستقبل أقرب إلى السواد ، إن لم يكن أسود حالكاً ، وهو فكر مؤسس على أفهام شاعت لبعض الأحاديث التى وردت فى سياق الكلام عن الفتن والملاحم وأشراط الساعة ، ولكن هذه الأفهام غير سليمة .

لهذا كنا فى حاجة إلى تجلية حقيقة (المبشرات) الغائبة عن كثيرين : من القرآن الكريم ، ومن السنّة المشرفة ، ومن التاريخ

الحافل ، ومن الواقع المائل ، ومن سنن الله الثابتة ، التى لن تجد لها تبديلاً ، ولن تجد لها تحويلاً .

وكل داعية للإسلام يجب أن يكون واثقاً بوعد الله تعالى ، مستبشراً بمستقبل رسالته الخاتمة ، ودعوته الخالدة ، رافضاً اليأس الذى هو من لوازم الكفر ، والقنوط الذى هو من مظاهر الضلال .

وهكذا وجدت إمامنا الشهيد حسن البنا ، لم تنطفئ شعلة الأمل فى صدره فى أشد الأوقات حرجاً ، وكم دبح فى ذلك المقالات التى تحمى الأمل ، وتبعث الرجاء ، وكم كرر فى رسائله : أن حقائق اليوم هى أحلام الأمس ، وأحلام اليوم هى حقائق الغد !

وكتب الشهيد سيد قطب كتابه (المستقبل لهذا الدين) ، وهكذا كل الدعاة الأصلاء .

فلنستبشر خيراً ، ولنأمل خيراً : ﴿ وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ ، سَيَرُّكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

الفقير إليه تعالى :

الدوحة فى شوال ١٤١٦ هـ - مارس ١٩٩٦ م يوسف القرضاوى

* * *

المبشرات بانتصار الإسلام

يتحدث كثير من الدعاة عن آخر الزمان ، وعن أحاديث الفتن والملاحم وأشراط الساعة ، حديثاً يوحى مجمله أن الكفر فى إقبال ، وأن الإسلام فى إدبار ، وأن الشر ينتصر ، والخير ينهزم ، وأن أهل المنكر غالبون ، وأهل المعروف ودعائه مخذولون .

ومعنى هذا : أن لا أمل فى تغيير ، ولا رجاء فى إصلاح ، وأننا ننتقل من سىء إلى أسوأ ، ومن الأسوأ إلى الأشد سوءاً ، فما من يوم يمضى إلا والذى بعده شر منه ، حتى تقوم الساعة .

وهذا لا شك خطأ جسيم ، وسوء فهم لما ورد من بعض النصوص الجزئية ، وإغفال للمبشرات الكثيرة الناصعة القاطعة ، بأن المستقبل للإسلام ، وأن هذا الدين سيظهره الله على كل الأديان ، ولو كره المشركون . لهذا كان من اللازم أن نتحدث عن هذه (المبشرات) ، ونشيعها بين المسلمين ، حتى نبعث الأمل المحرك للعزائم ، ونهزم اليأس القاتل للنفوس .

وهذه المبشرات كثيرة والحمد لله ، بعضها مبشرات نقلية من القرآن الكريم ومن السنة النبوية ، وبعضها من التاريخ ، وبعضها من الواقع ، وبعضها من سنن الله فى الخلق . وستتحدث عن كل واحدة من هذه المبشرات فى الصحائف التالية ، بما يفتح الله به .



المبشرات من القرآن الكريم

أول هذه المبشرات : ما جاء فى القرآن مما وعد به الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين بنصرة الإسلام ، وإتمام نوره ولو كره الكافرون ، وإظهاره على كل الأديان ولو كره المشركون .

نقرأ فى سورة التوبة - فى سياق الحديث عن الذين يعادون الإسلام من المشركين وأهل الكتاب الذين حرفوا دينهم ، واتخذوا أبحارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، والذين يأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله - قوله تعالى :

﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿ (١) .

يقول العلامة ابن كثير فى تفسير هاتين الآيتين :

« يقول تعالى : يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب : ﴿ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ ﴾ أى ما بعث به رسول الله ﷺ من الهدى ودين الحق ، فكذلك ما أرسل به رسول الله ﷺ لا بد أن يتم ويظهر ، ولهذا قال تعالى مقابلاً لهم فيما راموه وأرادوه : ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ

(١) التوبة : ٣٢ ، ٣٣

يُتَمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ والكافر هو الذى يستر الشئ ويغطيه ، ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ ، فالهدى هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة والإيمان الصحيح ، والعلم النافع ، ودين الحق هو : الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة فى الدنيا والآخرة : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ أى على سائر الأديان ، كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه قال : « إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا ، وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها » (١) ، وأخرج الإمام أحمد بمسنده عن مسعود بن قبيصة أو قبيصة بن مسعود يقول : صلى هذا الحى من محارب الصبح ، فلما صلوا قال شاب منهم : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول : « إنه ستفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها ، وإن عملها فى النار إلا من اتقى الله وأدَّى الأمانة » (٢) وأخرج الإمام أحمد أيضاً عن تميم الدارى يقول : قد عرفت ذلك فى أهل بيتى ، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز ، ولقد أصاب من كان كافراً منهم الذل والصغار والجزية (٣) .

(١) رواه مسلم فى كتاب (الفتن وأشراط الساعة) ، حديث رقم ١٩ وأبو داود (٤٢٥٢) .

(٢) رواه أحمد فى « المسند » (٣٦٦/٥) وحذفنا السند اختصاراً .

(٣) المسند : (١٠٣/٤) .

وفى المسند أيضاً عن عدى بن حاتم يقول : دخلت على رسول الله ﷺ فقال : « يا عدى أسلم تسلم » فقلت : إني من أهل دين ، قال : « أنا أعلم بدينك منك » ثم قال : « إني أعلم ما الذى يمنعك من الإسلام ، تقول : إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة له ، وقد رمتهم العرب أتعرف الحيرة ؟ » ، قلت : لم أرها وقد سمعت بها ، قال : « فوالذى نفسى بيده ليتمنَّ اللهُ هذا الأمر حتى تخرج الطعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز » ، قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : « نعم كسرى بن هرمز ، وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد » ، قال عدى : فهذه الطعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله ﷺ قد قالها (١) ، وروى مسلم بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى » ، فقلت : يا رسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله عزَّ وجلَّ : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ الآية أن ذلك تام ، قال : « إنه سيكون من ذلك ما شاء الله عزَّ وجلَّ » ، ثم يبعث الله ريحاً طيبة ، فيتوفى كل من كان فى قلبه مثقال حبة

(١) أحمد فى المسند : (٢٥٧/٤) .

خردل من إيمان ، فيبقى من لا خير فيه ، فيرجعون إلى دين آبائهم » (١) .

وهذا المعنى تكرر في سورة الصف حيث يقول تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿ (٢) .

وفي سورة الفتح قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (٣) .

ومن المبشرات القرآنية قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٤) .

يقول ابن كثير : « هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض ، أى أئمة الناس والولاية عليهم ، وبهم تصلح البلاد ، وتخضع لهم العباد ،

(١) مسلم في كتاب (الفتن وأشراط الساعة) ، حديث (٧٢) .

(٢) الصف : ٨ ، ٩ (٣) الفتح : ٢٨ (٤) النور : ٥٥

وليبذلنهم من بعد خوفهم أمناً وحكمًا فيهم ، وقد فعله تبارك وتعالى ، وله الحمد والمنة ، فإنه صلى الله عليه وسلم لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين ، وسائر جزيرة العرب ، وأرض اليمن بكمالها ، وأخذ الجزية من مجوس هجر ، ومن بعض أطراف الشام ، وهاداه هرقل ملك الروم ، وصاحب مصر وإسكندرية وهو المقوقس ، وملوك عُمان ، والنجاشي ملك الحبشة ، الذي تملك بعد أصحمة رحمه الله وأكرمه .

ثم لما مات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واختار الله له ما عنده من الكرامة ، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق ، فلم شعث ما وهى بعد موته صلى الله عليه وسلم ، وأخذ جزيرة العرب ومهداها ، وبعث جيوش الإسلام إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد رضى الله عنه ، ففتحوها طرقاً منها ، وجيشاً آخر صحبه أبى عبيدة رضى الله عنه ومن أتبعه من الأمراء إلى أرض الشام ، وثالثاً صحبة عمرو بن العاص رضى الله عنه إلى بلاد مصر ، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصرى ودمشق ومخاليفهما من بلاد حوران وما والاها .

وتوفاه الله عزَّ وجلَّ ، واختار له ما عنده من الكرامة ، ومن على أهل الإسلام بأن ألهم الصديق أن يستخلف عمر الفاروق ، فقام بالأمر بعده قياماً تاماً ، لم يدر الفلك بعد الأنبياء على مثله في قوة سيرته ، وكمال عدله ، وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها ، وديار مصر إلى آخرها ، وأكثر إقليم فارس ، وكُسر كسرى ، وأهان غاية الهوان ، وتقهقر إلى أقصى مملكته ، وقصر قيصر ، وانتزع يده

عن بلاد الشام ، وانحدر إلى القسطنطينية ، وأنفق أموالهما في سبيل الله ، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله ، عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة .

ثم لما كانت الدولة العثمانية - دولة عثمان بن عفان - امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها ، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى بلاد الصين ، وقتل كسرى وباد ملكه بالكلية ، وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز ، وجبى الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن ، ولهذا ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها » فيها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، فنسأل الله الإيمان به وبرسوله والقيام بشكره على الوجه الذى يرضيه عنا « أ هـ .

وهذا الوعد الإلهى للمؤمنين وعد دائم ومستمر ، وما تحقق فى عهد الخلفاء الراشدين من نصر وتمكين ، يمكن أن يتحقق لمن بعدهم ، فإن وعد الله تعالى لا يتخلف ، قال تعالى : ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ (١) ، ووعد الله هنا مشروط بالإيمان وعمل الصالحات وعبادة الله وحده ، وعدم الإشراك به ، قال تعالى : ﴿ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ (٢) .

* *

(٢) النور : ٥٥

(١) الكهف : ٩٨

● قصص الرسل وعاقبة المؤمنين والمكذبين :

ومن المبشرات القرآنية ما قصه علينا القرآن من قصص الرسل والمؤمنين وأقوامهم ، ومخالفاتهم من المشركين ، وكيف كانت العاقبة للرسول والذين آمنوا معه ، وكان الهلاك والدمار للذين تمردوا على الله وكذبوا المرسلين .

ومن ذلك : قصة موسى وقومه وفرعون وملئه ، وكيف حول الله بنى إسرائيل على يد موسى من حال إلى حال ، وأغرق فرعون وجنوده ، وحقق الله إرادته في تمكين المستضعفين ، وإدالة دولة الطاغين المتجبرين .

اقرأ هذه الآيات من سورة القصص :

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا ، يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ ، يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُكِنِّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ (١) .

فسخر القدر الأعلى من فرعون وملئه وجنده ، فقد كان يذبح أبناء بنى إسرائيل حتى لا يظهر منهم من يزول ملكه على يديه . فإذا

الطفل الموعود يدخل قصر فرعون بإرادته وينشأ ويتعرع فيه وتحت
سمعه وبصره ، وهو لا يدرى ، كما قال تعالى :

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ
وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ (١) .

وكان ما كان من أمر موسى وفرعون مما قص علينا القرآن تفصيلاً ،
وبعث الله موسى رسولاً إلى فرعون وقومه ، ومعه أخوه هارون ،
وكان لقاء وتحد انتهى بهزيمة فرعون على أيدي سحرته أنفسهم ،
الذين خروا ساجدين وقالوا :

﴿ آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ (٢) .

وجن جنون فرعون ، وهدد وتوعد ، وأرغى وأزبد . وأوحى الله
إلى موسى أن أسر بعبادى ليلاً إنكم متبعون . ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي
الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا
لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ *
وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ ﴾ (٣) .

* *

(٢) الأعراف : ١٢١ ، ١٢٢

(١) القصص : ٨

(٣) الشعراء : ٥٣ - ٥٩

● وعد الله بنصر المؤمنين وإنجائهم والدفاع عنهم :

ومن الميشرات القرآنية : وعد الله المؤمنين بالنصر والنجاة والدفاع والولاية والمعية ، على وجه العموم .

إقرأ قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) ،
﴿ ثُمَّ نُنْجِي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ، كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٣) .
﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (٤) .
﴿ وَلَكِنْ تَغْنَىٰ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥) .

ويتأكد هذا الوعي الإلهي عند حلول المحن والشدائد بساحة المؤمنين ، حين تمسهم البأساء في الأموال ، والضراء في الأبدان ، والزلزلة في النفوس ، هناك يكون النصر أقرب ما يكون من المؤمنين .
كما قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزَلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ، أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (٦) ،

(١) الروم : ٤٧ (٢) يونس : ١٠٣ (٣) الحج : ٣٨

(٤) البقرة : ٢٥٧ (٥) الأنفال : ١٩ (٦) البقرة : ٢١٤

يقول الرسول والمؤمنون من قومه : متى نصر الله ؟ استبطاء لمجئ النصر ، وكان الإنسان عجولاً ، وهنا يطمئنهم الله بهذه الجملة الفاصلة التي ختم بها الآية الكريمة ﴿ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ . ولكنه لا يعجل بعجلة أحدنا ، وكل شيء عنده بمقدار ، وبأجل مسمى ، لا يستأخر ولا يستقدم .

وقال تعالى في خواتيم سورة يوسف : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّى مَنْ نَشَاءُ ، وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (١) .

فانظر إلى هذه الصيغة ودلالاتها ﴿ اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ ﴾ من طول ما ارتقبوا النصر ، فلم يجئ في الوقت الذي كانوا يرغبونه ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا ﴾ الضمير في قوله : ﴿ ظَنُّوا ﴾ يعود إلى الأقوام الذين أرسل إليهم الرسل ، وذكروا في الآية السابقة ، فهم ظنوا أن الله أخلف رسله ما وعدهم ، ولم يصدقهم الوعد .

وهنا تكون المفاجأة بعد الاستيئاس من جانب الرسل وظن السوء من جانب أقوامهم المشركين ﴿ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّى مَنْ نَشَاءُ ﴾

فهو يأتي أحوج ما يكون الناس إليه ، وأرغب ما يكون في وصوله : ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ فهذا من سنن

(١) يوسف : ١١٠

الله مع المجرمين : ملاحقتهم بالبأس الإلهي حتى يؤدبهم ويعرفهم
بمقدار أنفسهم ، ويخفف من غلوائهم .

ومن ثم استقر في عقول المسلمين وقلوبهم : أن الأزمة كلما
اشتدت وتفاقت آذنت بالانفراج ، وأن أحلك سويعات الليل سواداً
هي السويعات التي تسبق الفجر ، وفي هذا قال الشاعر :

اشتدى أزمة تنفرجى قد آذن ليلىك بالبلج !

وقال الآخر :

ولرب نازلة يضيق بها الفتى

ذرعاً ، وعند الله منها المخرج !

ضاق ، فلما استحكمت حلقاتها

فرجت ، وكنت أظنها لا تفرج !

* *

● وعد الله بإحباط كيد الكافرين ومؤامراتهم :

يكمل وعد الله بنصر المؤمنين : وعده سبحانه بإحباط كيد
الكافرين ، ومكرهم بالإسلام وأهله ، وجهودهم الدائبة لإطفاء
نوره ؛ وأنه تعالى سيرد كيدهم في نحورهم ، ويعيد سهامهم
المسمومة إلى صدورهم . وهو - جل شأنه - لا يخلف الميعاد .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴾ * وَأَكِيدُ كَيْدًا *
فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رُوَيْدًا ﴿ (١)

وقوله تباركت أسماؤه : ﴿ وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ
الْمَاكِرِينَ ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السَّحَرُ ، إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ ،
إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ * وَيَحِقُّ لِلَّهِ الْحَقُّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ
كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿ (٣) .

وقال تعالى في بيان عاقبة بذلهم الأموال والجهود للصد عن
الإسلام : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ
اللَّهِ ، فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتْغَلِبُونَ وَتَحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ
وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ * قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ، فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ ، وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ
بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (٥) .

والفتتان المذكورتان في الآية الكريمة هما : فئة المؤمنين وفئة

(٢) الأنفال : ٣٠

(١) الطارق : ١٥ - ١٧

(٤) الأنفال : ٣٦

(٣) يونس : ٨١ ، ٨٢

(٥) آل عمران : ١٢ ، ١٣

المشركين فى بدر ، وقد نصر الله المؤمنين - وهم أقل عدداً ،
وأضعف عدة واستعداداً - على المشركين ، بما منحهم الله من إيمان
وثبات ، وما أنزل عليهم من جنده ، وما قذف فى قلوب أعدائهم
من رعب ، وما عملت فيهم يد القدر الأعلى بما هو فوق الأسباب
المعتادة ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ،
وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ، وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ
حَسَنًا ﴾ (١) .

وقال تعالى فى شأن جلاء بنى النضير من اليهود : ﴿ هُوَ الَّذِي
أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ،
مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ، وَظَنُّوا أَنْهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ
فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ،
يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ ، فَاعْتَبِرُوا يَا أُولَى
الْأَبْصَارِ ﴾ (٢) .

إنها يد الله ، تعمل بالأسباب ، ومن غير الأسباب ، وهى مع
المؤمنين دائماً وأبداً ، حتى ينتصروا وتعلو بهم كلمة الله .

* * *

● فسوف يأتي الله بقوم يحبهم :

ومن المبشرات القرآنية : ما ذكره الله تعالى في سورة المائدة ، مهدداً المرتدين المارقين من الدين ، بأنهم لن يضروا دين الله شيئاً ، ولن ينهدم الدين بارتدادهم عنه ، فقد تكفل سبحانه بأنه يدخر لهذا الدين جيلاً من المؤمنين الأقوياء ، يقاومون الردة والمروق ، ويقيمون الدين في أنفسهم : علاقة وثيقة - بل علاقة حب - بينهم وبين ربهم ، وعلاقة تعاطف ورحمة مع أهل الإيمان ، وعلاقة عزة وقوة مع أهل الكفر والطغيان ، وعلاقة جهاد ونضال مع أهل الشر والمنكر ، فهذه أوصافهم الأساسية التي أبرزها القرآن في معرض البشارة للمؤمنين ، والندارة للمرتدين :

يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ، يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لَائِمَةً ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

يقول الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية : يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة : إنه من تولى عن نصرته دينه ، وإقامة شريعته ،

بأن الله سيستبدل به من هو خير لها منه ، وأشد منعة وأقوم سبيلاً ،
كما قال تعالى :

﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ (١).

وقال تعالى : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ﴾ (٢).

وقال تعالى : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ (٣). أى ليس بممتنع ولا صعب .

وقال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لَّائِمَةً ﴾ :

(أى لا يردهم عما هم فيه من طاعة الله ، وإقامة الحدود ،
وقتل أعدائه ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لا يردهم عن
ذلك راد ، ولا يصدهم عنه صاد ، ولا يحيك فيهم لوم لائم ولا
عذل عاذل . وذكر ابن كثير هنا حديث أبى ذر - الذى رواه الإمام
أحمد - قال رضى الله عنه : أمرنى خليلى صلى الله عليه وسلم
بسبع . . وذكر منها : وأمرنى أن أقول الحق وإن كان مرأ ، وأمرنى
ألا أخاف فى الله لومة لائم) (٤) .

* * *

(٢) النساء : ١٣٣

(١) محمد : ٣٨

(٣) إبراهيم : ١٩ ، ٢٠ ، وفاطر : ١٦ ، ١٧

(٤) انظر : تفسير ابن كثير : ج ٢/٦٩ ، ٧٠ - طبعة عيسى الحلبى .

● سنريهم آياتنا :

ومن المبشرات القرآنية قوله تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (١)

وهذا وعد من الله تعالى ، يبرز منه في كل زمن ما نشهده بأعيننا ، وما نسمعه بأذاننا ، وما نحسه بقلوبنا .

ومن جملة ذلك : ما نراه في عصرنا من دراسات من أهل العلم الطبيعي والرياضي ، لبيان أوجه جديدة للإعجاز العلمي في القرآن ، وفي بعض هذه الدراسات نظرات جيدة وعميقة اعترف بها عدد من غير المسلمين .



المبشرات من السنة النبوية

وفى السُّنة النبوية والسيرة النبوية : مبشرات كثيرة وفيرة ، مر بنا ذكر بعضها فيما نقلناه عن الحافظ ابن كثير .

وهذه المبشرات النبوية قد حفلت بها دواوين الحديث الشريف ، من الصحاح والسنن والمسانيد والمعجم والأجزاء ، وغيرها من المصنفات الحديثية .

ولكن المسلمين - فى عصور التراجع والتخلف - أغفلوها ونسوها ، ولم يذكروا إلا أحاديث الفتن وأشراط الساعة ، وقد فهموها فهما يوحى باليأس من صلاح الحال ، ومن كل عمل ينهض بالأمة من عثرتها ، ويجتهد فى تغيير الواقع إلى ما هو أحسن وأمثل . ولا يعقل أن يصدر من هادى الأمة أن يشبها عن محاولة الإصلاح ، وإرادة التغيير .

وكل هذه المبشرات إخبار بمستقبل الإسلام ، وأن الغد له ولأئمة ، أخبر بها من لا ينطق عن الهوى .

وأود أن أذكر بأن الرسول الكريم لا يعلم الغيب بذاته ، فالله وحده هو الذى يعلم الغيب بذاته ، كما قال عزَّ وجلَّ : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ (١) .

(١) النمل : ٦٥

وإنما يعلم الرسول من الغيب ما أعلمه الله تعالى به ، فهو يخبر به كما أعلمه الله سبحانه ، قال تعالى : ﴿ عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ * إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ ﴿١﴾ .

وسنذكر أهم هذه المبشرات فى الصحائف التالية :



١ - انتشار الإسلام فى العالم كله :

من هذه المبشرات : ما رواه تميم الدارى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ليلغن هذا الأمر (يعنى أمر الإسلام) ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر ، إلا أدخله الله هذا الدين ، بعز عزيز ، أو بذل ذليل ، عزا يعز الله به الإسلام ، وذلا يذل الله به الكفر » (٢) .

ومعنى بلوغه ما بلغ الليل والنهار : انتشاره فى الأرض كلها ، حيث يبلغ الليل والنهار ، ودخول هذا الدين الحواضر والبادى ، فالخواضر هى التى يبوتها من مدر (أى من حجر) ، والبادى هى التى يبوتها من وبر وشعر ، وسيدخل الإسلام جميعها ، وبهذا

(١) الجن : ٢٦ ، ٢٧

(٢) رواه أحمد فى مسنده : (٤ : ١٠٣) ، وأورده الهيثمى فى المجمع ، وقال : رواه أحمد والطبرانى ، ورجال أحمد رجال الصحيح : (١٤ / ٦) ، وفيه أغلاط مطبعية .

يتحقق وعد الله تعالى في كتابه : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ وذلك في ثلاث آيات : في التوبة : ٣٣ ، وفي الفتح : ٢٨ ، وفي الصف : ٩ .

ومعنى ظهوره على الدين كله ، غلبته على جميع الأديان ، وفي القرون الإسلامية الأولى غلب الإسلام على اليهودية والنصرانية والوثنية العربية والمجوسية الفارسية ، وبعض أديان آسية وأفريقية ، ولكنه لم ينتصر على جميع الأديان ، فلا زلنا ننتظر هذه البشارة ، ولن يخلف الله وعده .

وأكد هذه البشارة : ما رواه المقداد بن الأسود ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام ، بعز عزيز ، أو بذل ذليل .. » (١) الحديث .



٢ - عودة الإسلام إلى أوربة وفتح رومية :

ومن هذه المبشرات ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي قبيل قال :

(١) رواه أحمد : (٤/٦) ، والطبراني : ٦٠١/٢٠ ، وابن حبان (٦٦٩٩) ، (٦٧٠١) ، والحاكم : (٤٣٠/٤) ، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ، وأورده الهيثمي : (١٤/٦) ، ويبدو أن في الكلام سقطاً ، فقد قال : رجال الطبراني رجال الصحيح ، مما يدل أنه قال : رواه أحمد والطبراني .

كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص وسئل : أى المدينتين تفتح أولاً : القسطنطينية أو رومية ؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق ، قال : فأخرج منه كتاباً ، قال : فقال عبد الله : بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب (١) ، إذ سئل رسول الله ﷺ : أى المدينتين تفتح أولاً : قسطنطينية أو رومية ؟ فقال : « مدينة هرقل (٢) تفتح أولاً ! » (٣) .

(١) يدل هذا على أن تدوين الحديث أو كتابته بدأ منذ عهد النبي ﷺ ، وعلى ذلك أدلة كثيرة ، ومن المعروف أن عبد الله بن عمرو كان له صحيفة يكتب فيها تسمى (الصادقة) ولعلها هى التى كانت فى الصندوق ذى الحلق . الذى أخرجه ليحجب السائل .

(٢) هرقل هو الإمبراطور الذى كان يحكم دولة الروم البيزنطية فى عهد البعثة المحمدية ، وهو الذى أرسل إليه النبي ﷺ كتابه الشهير يدعوه فيه وشعبه إلى الإسلام . وهو الذى أحضروا إلى مجلسه أبا سفيان قبل إسلامه ، وسأله عن النبي ودعوته أسئلة دقيقة تدل على ذكائه وعقله ، وتبين له منها صدق النبي ﷺ ولكنه حين اختبر من حوله فوجد منهم صدوداً ونفرة عن الإسلام غلب حب ملكه على أتباع الحق ، وباع الدين بالدنيا ، وقد بقى إلى أن فتحت سوريا فى عهد عمر رضى الله عنه فغادرها وهو يقول : سلام عليك يا سوريا ، سلام لا لقاء بعده ! .

(٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده ، حديث (٦٦٤٥) ، وقال الشيخ شاكر : إسناده صحيح ، وأورده الهيثمى فى المجمع : (٢١٩/٦) ، وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ، غير أبى قبيل ، وهو ثقة ، وذكره الألبانى فى سلسلته الصحيحة برقم (٤) .

ورومية هي : روما عاصمة إيطاليا الآن ، والقسطنطينية هي :
إستانبول الآن ، يفهم من السؤال أن الصحابة كانوا قد علموا قبل
ذلك أن الإسلام سيفتح المدينتين ، ويدخل أهلهما في دين الله ،
ولكن يريدون أن يعرفوا : أىّ المدينتين تسبق الأخرى ، فأجابهم أن
مدينة هرقل - وهي القسطنطينية - ستفتح أولاً .

وقد تحقق ذلك على يد الفتى العثماني الطموح (محمد بن مراد)
ابن الثالثة والعشرين ، الذي عُرف في التاريخ باسم (محمد الفاتح) ،
وفتحت (مدينة هرقل) في القرن التاسع الهجري ، الخامس عشر
الميلادي ، وبالتحديد : في يوم الثلاثاء ٢٠ من جمادى الأولى سنة
٨٥٧ هـ - ٢٩ آيار (مايو) سنة ١٤٥٣ م .

وبقى الجزء الثاني من البشرى : فتح رومية ، وبه يدخل الإسلام
أوروبا مرة أخرى بعد أن طرد منها مرتين : مرة من الأندلس ، ومرة
من البلقان .

وظنى أن هذا الفتح سيكون بالقلم واللسان ، لا بالسيف والسنان ،
وأن العالم سيفتح ذراعيه وصدّره للإسلام ، بعد أن تشقيه الفلسفات
المادية (الأيديولوجيات) الوضعية ، ويتطلع إلى مدد من السماء ،
وهدى من الله ، فلا يجد إلا الإسلام طوقاً للنجاة .

و(الفتح السلمى) له أصل في الإسلام ، فقد سمى الله تعالى
صلح الحديبية فتحاً ، بل « فتحاً مبيّناً » وأنزل في ذلك سورة (الفتح) :

وفيهما يقول الله سبحانه : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا .. ﴾ وسأل الصحابة رسول الله ﷺ : أفتح هو يا رسول الله ؟ فقال : نعم هو فتح .



٣ - اتساع دولة الإسلام فى المشارق والمغارب :

ومن هذه المبشرات ما رواه مسلم وغيره عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله زوى لى الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتى سيبلغ ملكها ما زوى لى منها ، وأعطيت الكنزين : الأحمر والأبيض .. » الحديث (١) .

ومعنى (زوى لى الأرض) : أى قبضها ، وضمها وجمعها له عليه الصلاة والسلام حتى يراها جملة واحدة .

وهذا الحديث يبشر باتساع دولة الإسلام حتى تشمل المشارق والمغارب ، أى : الأرض كلها ، فإذا كان حديث تميم الدارى ، وحديث المقداد السابقان - يؤذنان بانتشار دعوة الإسلام ، وعلو كلمة الإسلام ، فهذا الحديث يبشر بقوة دولة الإسلام واتساعها ، بحيث تضم المشارق والمغارب ، التى رآها النبى ﷺ ، وبهذا تلتقى

(١) الحديث رواه مسلم فى الفتن وأشراف الساعة برقم (٢٨٨٩) ، وأبو داود (٤٢٥٢) ، والترمذى (٢٢٠٣) ، وابن ماجه (٣٩٥٢) .

قوة الدعوة ، وقوة الدولة ، وبعبارة أخرى : قوة القرآن وقوة السلطان ، وفى هذا من الخير ما فيه .



٤ - الرخاء والأمن وفيض المال :

ومن هذه المبشرات : ما رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً » وزاد أحمد فى روايته : « وحتى يسير الراكب بين العراق ومكة لا يخاف إلا ضلال الطريق » (١) .

ومنها : ما رواه أبو هريرة أيضاً عن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يكثّر فيكم المال فيفيض ، حتى يهمل ربّ المال من يقبل منه صدقته ، وحتى يعرضه فيقول الذى يعرضه عليه : لا أرب لى » (٢) .

يؤكدّه حديث أبى موسى مرفوعاً : « ليأتين على الناس زمان يطوف الرجل فيه بالصدقة من الذهب ! ثم لا يجد أحداً يأخذها منه » (٣) .

(١) رواه مسلم فى كتاب الزكاة برقم (١٠١٢ ، ٦٠) ، وأحمد : ٣٧٠ / ٢ ، (٣٧١) .

(٢) متفق عليه : اللؤلؤ والمرجان (٥٩٤) .

(٣) متفق عليه : اللؤلؤ والمرجان (٥٩٣) .

ومثله حديث حارثة بن وهب مرفوعاً : « تصدقوا ، فإنه يأتي عليكم زمان يمشى الرجل بصدقته فلا يجد من يقبلها ، يقول الرجل : لو جئت بها بالأمس لقبلتها ، فأما اليوم فلا حاجة لى بها » (١) .

وهذا كله دليل على ظهور الرخاء ورغد العيش ، وزوال الفقر من المجتمع ، بحيث لا يوجد فيه فقير يستحق الصدقة أو يقبلها . وهذا من بركات عدل الإسلام ، وأثر الإيمان والتقوى فى حياة الناس ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٢) .



٥ - عودة الخلافة على منهاج النبوة :

ومن هذه المبشرات : ما رواه حذيفة بن اليمان عنه - صلى الله عليه وسلم - قال :

« تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً عاصياً ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً جبرياً ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا

(١) متفق عليه : اللؤلؤ والمرجان (٥٩٢) . (٢) الأعراف : ٩٦

شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة « ثم سكت ؟ (١) .

والملك العاص - وفي رواية : العضوض - هو الذى يصيب الناس فيه عسف وظلم كأنه له أنياباً تعض . أما ملك الجبرية فهو القائم على الجبروت والطغيان ، أشبه بالحكم العسكرى المستبد فى عصرنا .

فهذا الحديث يبشر بانقشاع عهود الاستبداد والظلم والطغيان ، وعودة الخلافة الراشدة ، المتبعة لمنهاج النبوة فى إقامة العدل والشورى ، ورعاية حدود الله وحقوق العباد .



٦ - الانتصار على اليهود :

ومن هذه المبشرات : ما رواه ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تقاتلكم اليهود ، فتسلطون عليهم ، ثم يقول الحجر : يا مسلم ، هذا يهودى ورائى ، فاقتله » (٢) .

ومثله ما رواه أبو هريرة مرفوعاً : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل

(١) رواه أحمد : (٢٧٣/٤) ، وقال الهيثمى فى « المجمع » : (١٨٩/٥) : رواه أحمد ، والبزار أتم منه ، والطبرانى يبعضه فى الأوسط ، ورجاله ثقات .

(٢) متفق عليه : اللؤلؤ والمرجان (١٨٤٩) .

المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون ، حتى يختبئ اليهودى من وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم ؛ يا عبد الله ؛ هذا يهودى خلفى ، فتعال فاقتله » (١) .

فهل ينطق الحجر والشجر بلسان المقال - آية من آيات الله ، وما ذلك على الله بعزيز - أو ينطقان بلسان الحال ؟ بمعنى أن كل شئ يدلّ على اليهود ، ويكشف عنهم .

وأيا كان المراد ، فالمعنى أن كل شئ سيكون فى صالح المسلمين ، وضد أعدائهم اليهود ، وأن النصر آتٍ لا ريب فيه ، وأن أسطورة (القوة التى لا تقهر) التى يشيعها اليهود لن تستمر ، وأن الذين اغتصبوا فلسطين بقوة السلاح ، وسلاح القوة ، سيخذلهم الله ، الذى يملئ للظالمين ، ثم يأخذهم أخذًا أليمًا شديدًا ، ولن تغنى عنهم ترسانتهم النووية التى يُدُلُّون بها ، كما لم تغن حصون أسلافهم من بنى النضير عنهم شيئًا ، حين جاءهم بأس الله الذى لا يرد عن القوم المجرمين ، كما قال تعالى فى شأنهم : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ، مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ، وَظَنُّوا أَنْهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ ، فَأَنَّا هُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ،

(١) رواه مسلم فى صحيح الجامع الصغير (٧٤٢٧) .

يُخْرِبُونَ بَيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ، فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي
الْأَبْصَارِ ﴿١﴾ .



٧ - بقاء الطائفة المنصورة :

ومن هذه المبشرات : ما رواه عدد من الصحابة رضى الله عنهم ،
مثل ما رواه معاوية عنه رضي الله عنه قال :

« لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله ، لا يضرهم من
خذلهم ولا من خالفهم ، حتى يأتي أمر الله ، وهم ظاهرون على
الناس » (٢) .

وقد صح هذا الحديث من رواية عمر والمغيرة وثوبان وأبى هريرة
وقرة بن إياس وجابر وعمران بن حصين وعقبة بن عامر (٣) ، وجابر
ابن سمرة (٤) . وأبى أمامة ، الذى قال : قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : « لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين ،
لعدوهم قاهرين ، لا يضرهم من خالفهم ، إلا ما أصابهم من لأواء

(١) الحشر : ٢

(٢) رواه أحمد والشيخان - صحيح الجامع الصغير (٧٢٩٠) .

(٣) انظر أحاديثهم فى صحيح الجامع الصغير من (٧٢٨٧) إلى (٧٢٩٦) .

(٤) صحيح الجامع الصغير (٧٧٠٤) .

حتى يأتي أمر الله ، وهم كذلك » . قالوا : يا رسول الله ، وأين هم ؟ قال : « بيت المقدس وأكناف بيت المقدس » (١) .

ومعنى هذه الأحاديث كلها : أن الخير سيستمر في هذه الأمة ، وأنها لا تخلو من قائم لله بالحجة ، ومن ناصر للحق ، مستمسك به ، حتى تقوم الساعة ، وأن هذه الطائفة المنصورة باقية حتى يأتي أمر الله ، وإن أصابها ما أصابها من لأواء وأذى .

يؤكد هذا ما رواه أبو مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ :
« إن الله أجاركم من ثلاث خلال : ألا يدعو عليكم نبيكم فتهلكوا جميعاً ، وألا يظهر أهل الباطل على أهل الحق ، وألا تجتمعوا على ضلالة » (٢) .

* *

٨ - ظهور المجددين في كل قرن :

ومن هذه المبشرات : ما رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال :
« إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة ، من يجدد لها دينها » (٣) .

(١) المسند : (٢٦٩/٥) ، وفيه قال عبد الله : وجدت بخط أبي .. الحديث ، وأورده الهيثمي وعزاه إلى المسند والطبراني : قال : رجاله ثقات : (٢٨٨/٧) .

(٢) رواه أبو داود في الفتن (٤٢٥٣) .

(٣) رواه أبو داود في كتاب الملاحم (٤٢٩١) ، والحاكم وصححه .

وكلمة (من) فى الحديث تشمل (المفرد) كما قالوا عن عمر ابن عبد العزيز والشافعى والغزالى ، كما تشمل الجمع ، كما ذهب إليه بعض الشراح ، وهو ما نختاره ، فقد يكون المجدد جماعة دعوية أو تربوية أو جهادية ، وهنا يكون سؤال المسلم : ما دورى فى حركة التجديد ؟ بدل أن يكون كل همه انتظار ظهور المجدد ، وهو لا حول له ولا قوة (١) !



٩ - نزول المسيح :

ومن المبشرات التى صحت بها السنة : نزول المسيح عيسى ابن مريم فى آخر الزمان حاكماً بشريعة الإسلام ، خليفة لمحمد رسول الله وخاتم النبیین .

وقد ذكر المحققون من علماء الحديث أن الأحاديث التى وردت فى هذا الشأن بلغت حد التواتر ، الذى يثبت به العلم اليقینى .
وقد ذكر منها العلامة مولانا أنور الكشميرى أربعين حديثاً ما بين صحيح وحسن - بخلاف الضعيف - فى كتابه (التصريح بما تواتر

(١) انظر : حديثنا عن (تجديد الدين فى ضوء السنة) فى كتابنا (من أجل صحوة راشدة) طبع المكتب الإسلامى ببيروت ، ودار البشير بطنطا بمصر .

فى نزول المسيح) الذى حققه صديقنا العلامة الشيخ عبد الفتاح
أبو غدة .

ومن آمن بقدرة الله تعالى ، التى لا يعجزها شىء فى الأرض
ولا فى السماء ، وعرف آيات الله تعالى فى الكون ، وآياته التى أيد
بها رسله ، لم يصعب عليه أن يؤمن بنزول المسيح من السماء ، بعد
أن رفعه الله إليها ، حين أراد أعداؤه قتله وصلبه عليه السلام ، كما
قال تعالى : ﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (١) ،
وحتى لو قلنا كما قال بعضهم : إن المسيح مات ، فليس بعيداً
ولا غريباً أن يبعثه الله ويحييه ، آية لخلقه ، كما كان هو يحيى الموتى
بإذن الله .



١٠ - ظهور المهدي :

ومن المبشرات المشهورة فى السُّنَّة : الأحاديث التى جاءت فى
شأن ظهور المهدي ، والصحيح منها الذى لا اعتراض عليه ، ولا
ينبغى أن يخالف فيه مخالف : أن هناك حاكماً مسلماً ملتزماً
بالإسلام ، سيظهر بعد عهود جور وفساد ، يقيم دين الله فى
الأرض ، ويملؤها عدلاً ، كما ملئت ظلماً وجوراً . أما الخلاف

(١) النساء : ١٥٨

فهو فى نسيه واسمه وشكله وصورته ، ووقت ظهوره ، وهذا لا يهمنى .
إنما الذى يهمنى هو الفكرة نفسها ، وهى مسلمة ، وهى إحدى
البشائر النبوية ، وحسبنا هنا الحديث الذى رواه أحمد وأبو داود عن
على رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « لو لم يبق من الدنيا إلا يوم ،
لبعث الله رجلاً منا ، يملؤها عدلاً ، كما ملئت جوراً » (١) .

وروى الحاكم عن أبى سعيد مرفوعاً : « لا تقوم الساعة حتى
تملأ الأرض ظلماً وجوراً وعدواناً ، ثم يخرج رجل من أهل بيتى
يملؤها قسطاً وعدلاً ، كما ملئت ظلماً وجوراً وعدواناً » (٢) .

وقد بالغ بعض المتأخرين من المؤلفين فى علم التوحيد ،
فأدخلوها فى (العقائد) التى يجب الإيمان بها .

وفى رأى أنه لا ضرورة للتوسع فى العقائد التى يطلب الإيمان بها
من عموم الناس : وحسبنا ما جاء به القرآن من الإيمان بالله وملائكته
وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأضاف إلى السنة الإيمان بالقدر ،
وهو جزء من الإيمان بالله تعالى ، ولذا لم يفرد القرآن بالذكر .



-
- (١) رواه أبو داود فى كتاب المهدى (٤٢٨٣) ، وسكت عنه هو والمنذرى ،
وصحَّحه الشيخ أحمد شاكر فى تخريج المسند ، وفيه فطر بن خليفة (٧٧٣) ،
وقد ذكره فى صحيح الجامع الصغير ، وزيادته (٥٣٠٥) .
- (٢) رواه الحاكم وصحَّحه على شرط الشيخين ووافقه الذهبى : (٥٥٧/٤) .

مبشرات من التاريخ

ولا تقف المبشرات بانتصار الإسلام عند النصوص القرآنية والحديثية المتوافرة ، والتي تملأ القلب يقيناً بأن الغد لهذا الدين العظيم . بل إننا نجد فى وقائع التاريخ وأحداث الماضى : ما يعمر قلوبنا بالثقة والأمل فى مستقبله ، برغم ما يقف فى سبيله اليوم من عقبات ، وما يعوق صحوته من عوائق هائلة ، بعضها من صنع أعدائه فى الخارج وأخرى من صنع خصومه فى الداخل ، وأعجب شئ أن يكون هؤلاء الخصوم أو أكثرهم ممن يحملون اسم الإسلام ، ولكنهم - فى الحقيقة - قد انضموا إلى صفوف محاربيه ، فلا يريدون للشرعة أن تحكم ، ولا لقيمه أن تسود ، ولا لكلمته أن تكون هى العليا .



● حقيقتان كبيرتان من التاريخ :

وحسبنا من مبشرات التاريخ عامة ، وتاريخنا خاصة -الذى يبدأ بسيرة النبى ﷺ - : حقيقتان كبيرتان فى غاية الأهمية فى موضوعنا الذى نبحثه .



● نزول النصر أحوج ما نكون إليه :

الحقيقة الأولى : أن النصر لا يأتي من عند الله إلا عندما يكون الناس أحوج شيء إليه ، وعندما يبرأ الناس من حولهم وقوتهم ، ويلوذون بحول الله تعالى وقوته ، وعندما تغلق الأبواب في وجوههم إلا بابه ، وتنقطع الأسباب دونهم إلا أسبابه ، هناك يدعون دعاء المضطرين ، ويلجئون إليه لجوء المفتقرين . وهو سبحانه يجيب المضطر إذا دعاه ، ولا يخيب من افتقر إليه ورجاه .

رأينا ذلك في هجرة النبي ﷺ ، وقد لجأ إلى الغار ، فاختفى فيه هو وصاحبه أبو بكر ، وقد بحث المشركون عنهما حتى وصلوا إلى باب الغار ، وقال أبو بكر مشفقاً على صاحبه وعلى دعوته : يا رسول الله ؛ لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ! فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : « يا أبا بكر ؛ ما ظنك باثنين الله ثالثهما » ؟ .

وقد قص علينا القرآن كيف نصر الله رسوله في ذلك اليوم ، وبأى جند نصره . يقول تعالى : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

ورأينا ذلك النصر فى يوم بدر ، وقد كان المسلمون أقل من المشركين عدداً (كانوا أقل من ثلثهم) وأضعف عُدَّة (كان مع المسلمين فرسان ، ومع المشركين مائة فرس) وأضعف استعداداً وتهيؤاً للحرب من الناحية النفسية ، فقد خرجوا من بيوتهم للغير لا للنفير ، فلم يكن القتال فى نيتهم ، وفى هذا يقول القرآن :

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنْ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ * يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿ (١) .

ومع هذا كان النصر للمؤمنين ، حين استغاثوا بالله فأغاثهم :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدَفِينَ ﴾ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿ (٢) ، وكان الرسول ﷺ يدعو ربه فى ذلك اليوم ، ويلح فى الدعاء ، يقول :

« اللهم أنجز لى ما دعوت ، اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض بعد اليوم » !! وما زال يدعو حتى سقط الرداء عن منكبيه ، وأبو بكر يقول له : والله يا رسول الله لينصرك الله ، وليبيضن وجهك !

(٢) الأنفال : ٩ ، ١٠

(١) الأنفال : ٥ ، ٦

لقد كانت يد الله الواحد القهار هى التى تدير المعركة من فوق سبع سموات ، هو الذى رتبها ، وهياً مكانها وزمانها : ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ، لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَةٍ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

كانت يد القدر الأعلى وراء يد النبى ﷺ حين رمى بحفنة من الرمل فى وجوه القوم ، وكانت وراء أيدى المؤمنين ، وهى تقتل المشركين كما قال تعالى :

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ (٢) .

ومن هنا امتن الله على رسوله وعلى المؤمنين بنصرهم فى بدر ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٣) .

ورأينا ذلك النصر فى يوم الخندق ، وقد اشتد الكرب على المسلمين ، حين غزاهم المشركون فى عقر دارهم ، وحاصروهم حصاراً شديداً ، وحفروا الخندق ليحميهم من هجومهم ، وغدر بهم اليهود وانضموا إلى المهاجمين . وقد وصف القرآن حال

(١) الأنفال : ٤٢ (٢) الأنفال : ١٧ (٣) آل عمران : ١٢٣

المسلمين المادية والنفسية في هذا الوقت العصيب فقال : ﴿ إِذْ جَاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ، وَإِذَا زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ (١) .

وقد كشف المنافقون عن أقنعتهم ، وقال منهم ما قال : مما سجله عليهم القرآن :

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا * وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ، وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ، إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ (٢) .

في هذه المحنة الخانقة ، وفي تلك الظروف الحالكة ، جاء نصر الله تعالى ، كما قال عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ (٣) .

وقال أيضاً : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ، وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ، وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ (٤) .

(٢) الأحزاب : ١٢ ، ١٣

(١) الأحزاب : ١٠ ، ١١

(٤) الأحزاب : ٢٥

(٣) الأحزاب : ٩

وفى غزوة حنين ، كان المسلمون جيشاً كبيراً ، وقد فتحوا مكة ، وانتصروا على قريش فغرتهم كثرتهم ، واعتزوا بعددهم ، فلقتهم الله درساً بليغاً حتى يفيقوا ، ويعلموا أن النصر من عند الله ، ومن لم ينصره الله فهو مغلوب ، ومن نصره الله فلن يغلب أبداً .

يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا ، وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) .

وهكذا نجد أن نصر الله تعالى يتنزل على عباده المؤمنين ، حين تضيق بهم الحيل ، وتخذلهم أسباب الأرض ، فيمدون أكفهم إلى السماء .

وهذا أمر ثابت فى تاريخ الرسالات كلها ، وفى تاريخ الرسل جميعاً ، كما بين ذلك القرآن فى قوله فى أواخر سورة يوسف : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَنْ نَشَاءُ ، وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (٢) .

* *

(٢) يوسف : ١١٠

(١) التوبة : ٢٥ - ٢٧

● قوة الأمة عند الشدائد :

والحقيقة الثانية التى عرفناها من تاريخنا : هو المخزون النفسى والروحى الكبير ، الذى تدخره الأُمَّة ، ولا يبرز إلا فى المحن والخطوب .

إن التاريخ يحدثنا أن فى الإسلام (قوة ذاتية) مخبوءة ، لا تبرز إلا عند حلول الشدائد بساحته ، وإحاطة المحن بأمته . فهناك نراه أصلب ما يكون عودًا ، وأعظم ما يكون صمودًا ، وأشد ما يكون قوة ، وأقدر ما يكون على تفجير الطاقات المكنونة لأُمته ، وإبراز ما خبئ من قوته وقدرته ، فإذا هو يقاوم فيصمد ، بل يغالب فيغلب ، وإذا الضعف الظاهر الذى أطمع الناس قد استحال إلى قوة ، بل إلى قوة قاهرة متصرة .

رأينا ذلك فى فجر تاريخ الإسلام : فى يوم بدر ، حيث انتصرت القلة على الكثرة ، والضعف المادى على القوة ، وامتن الله على المؤمنين بقوله : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ

(١) آل عمران : ١٢٣

يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١﴾ .



● فى حروب الردة :

ورأينا ذلك بعد وفاة رسول الله ﷺ ، وقد ارتدت قبائل العرب -
فيما عدا المدينة ومكة والطائف - وظهر أدعياء النبوة الكذبة من
كهنة العرب ، وتبعهم قبائلهم عصبية لهم ، على حد قولهم :
كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر ! فكان مسيلمة وسجاح
والأسود العنسي وطلحة الأسدي ، وغيرهم ، وانضم إليهم مانعو
الزكاة ، الذين أقروا بالصلاة ولم يقرأوا بالزكاة ، وكانت فتنة عارمة ،
ومحنة قاسية ، جعلت بعض الصحابة يقول لأبى بكر : يا خليفة
رسول الله ؛ لا طاقة لك بحرب العرب جميعاً ، الزم بيتك ،
وأغلق بابك ، واعبد ربك ، حتى يأتيك اليقين !!

ولكن أبابكر الرجل الرقيق البكاء أبى أن يستسلم ، وثبت
كالطود ، وزأر كالليث ، وجهز أحد عشر جيشاً لحرب المرتدين
ومانعى الزكاة ، ولما ناقشه عمر فى مقاتلة ما نعى الزكاة . وقد قال
النبي ﷺ : « أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا : (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

فإذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » . وهنا قال له أبو بكر فى يقين وقوة : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة . فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعونى عناقًا (عنزة صغيرة) - وفى رواية : عقلاً - كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه .

وقامت معارك بين الصحابة - على قلتهم - وبين المرتدين ومانعى الزكاة على كثرتهم - انتهت بانتصار المؤمنين على المارقين الذين رجعوا إلى حظيرة الإسلام تائبين مستغفرين ، مكفرين عن ردتهم بالانضمام إلى صفوف المجاهدين فى قتال فارس والروم . وكانوا من أعظم الناس بلاء فيه ، يعوضون عما بدر منهم فى حق الإسلام .

وعادت جزيرة العرب حصناً ومعقلاً للإسلام ، على امتداد القرون .



● فى الحروب الصليبية :

وظهرت القوة الكامنة فى الإسلام مرة أخرى ، حين زحف عليه الغرب المسيحى بقضه وقضيضه ، وثالوثه وصليبه ، فى تسع حملات شهيرة عرفت باسم (الحملات الصليبية) .

جاء الغرب الصليبي الزاحف يحمل فى صدره حقداً أسود على الإسلام وأهله ، وطمعاً فى خيرات بلاده ، وأملاً فى تحطيم قوته وميراث ملكه ، ساعده على ذلك غفلة المسلمين ، وغرق حكامهم فى الشهوات . وتفرقهم من أجل الدنيا ، وحرصهم على الإمارة ، واستعداد هؤلاء الأمراء التافهين أن يبيع أحدهم أخاه ويشترى الدخيل الغريب ، وأن يبيع أمته ويشترى إمارته .

فلا غرو أن ينتصر الصليبيون فى أول الأمر ، وأن يقيموا لهم ممالك وإمارات فى ديار الإسلام ، بالتعاون مع الخونة من الأمراء ، وأن يدخلوا بيت المقدس ، بعد مذبحة قتل فيها عشرات الألوف ، وجرت الدماء للركب .

وبقى الصليبيون فى الشام نحو مائتى عام ، وبقي بيت المقدس فى أيديهم تسعين سنة كاملة .

ثم هيا الله للإسلام رجالاً صمموا على أن يقاوموا العدوان ، وأن يستردوا الأرض المغتصبة ، ويستعيدوا الحق السليب ، فكان عماد الدين زنكى ، وابنه البطل نور الدين محمود الشهيد ، الذى كان يشبه بالخلفاء الراشدين فى سيرته وشجاعته والتزامه وعدله ، وتلميذه القائد المظفر صلاح الدين الأيوبي ، الذى كتب الله له النصر على الصليبيين فى معركة (حطين) الشهيرة ، وفى معركة فتح بيت المقدس ، وإعادته إلى أمة الإسلام ، وكانت بعد ذلك

معارك فى مصر ، انتهت بأسر لويس التاسع فى (دار ابن لقمان)
بالمنصورة .

وكل هذا دليل على أن الأمة الإسلامية قد تنام ، وقد تمريض ،
ولكنها لا تموت ، ما دام يجرى فى عروق أبنائها دم العقيدة ، وما دام
فيها من يقودها به (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) .



● فى حروب التتار :

وكما تعرض الإسلام للغزو من الغرب على أيدي الصليبيين
الأوربيين النصارى ، تعرض للغزو من الشرق على أيدي التتار
الوثنيين . الذين هجموا على بلاد الإسلام كالريح العقيم ، ما تذر
من شئ أتت عليه إلا جعلته كالرميم .

وقد ظهوروا والمسلمون ضعفاء متفرقون ، ليس لهم قيادة قوية
تجمع صفوفهم ، ولا نهضة إيمانية توقظ شعوبهم ، والتتار كانوا فى
ذلك الزمن قوة عسكرية عاتية ، لها قيادة مهيبة مطاعة ، لا يقف فى
وجوههم أولئك الملوك الممزقون ، والأمراء المفرقون ، والولاة
المترفون ، فسقطت البلاد فى أيديهم بلدًا بلدًا ، وفر الأمراء من
أمامهم - أو خضعوا لهم - أميرًا أميرًا ، والنصر يغرى بالنصر ،
والظفر يدفع إلى الظفر ، حتى كان المثل السائر فى ذلك الزمان :

إذا قيل لك إن التتار قد انهزموا فلا تصدق ! إنها أسطورة (القوة التي لا تقهر) تتكرر ما بين عصر وآخر .

وأخيراً زحفوا على عاصمة الخلافة العباسية بغداد دار السلام ، وأرقى بلاد الإسلام ، فسقطت تحت ضرباتهم وبمعونة من خان ممن ينتسبون إلى الإسلام ، وسالت الدماء أنهاراً ، وأسود نهر دجلة من كثرة ما ألقى فيه من كتب الحضارة ، التي سال مدادها ، حتى أحالت ماء النهر أسود حالكاً .

ولم تكد تمضى سنوات ، حتى تحققت معجزة الإسلام مرتين : انتصر الإسلام على التتار عسكرياً ، في معركة من معارك التاريخ الحاسمة ، وهى معركة (عين جالوت) بقيادة القائد المملوكى الصالح سيف الدين قطز ، الذى حقق الله على يده النصر ، ومعه جنود مصر ، فى يوم من أيام الله فى الخامس والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨ هـ ، أى بعد سقوط بغداد بستين فقط .

وانتصر الإسلام مرة أخرى معنوياً ، فإذا هؤلاء الجبابرة الذين غزوا الإسلام يغزوهم الإسلام ، وإذا سيف الغازى المصلت يسقط أمام تأثير العقيدة الإسلامية العزلاء ، وإذا الغالبون يدخلون أخيراً فى دين المغلوبين !! على خلاف ما هو معروف ومألوف ، وهو ما قرره ابن خلدون أن المغلوب هو المولع دائماً بتقليد الغالب المنصور ..



● حروب التحرير فى العصر الحديث :

وفى العصر الحديث ، رأينا الجهاد البطولى ، ضد الغزاة المستعمرين ، فى سائر ديار الإسلام : جهاد الأمير عبد القادر الجزائرى ضد الفرنسيين فى الجزائر ، والأمير عبد الكريم الخطابى ضد الأسبان فى المغرب ، والبطل عمر المختار ضد الطليان فى ليبيا ، والشيخ عز الدين القسام ضد الإنجليز واليهود فى فلسطين ، مروراً بثورة الجزائر ضد الاستعمار الفرنسى ، ومعارك فلسطين ضد الصهاينة ، والقناة ضد الإنجليز .

كما اعترف المؤرخون الغربيون أنفسهم - أمثال برنارد لويس فى كتابه (الغرب والشرق الأوسط) - أن الحركات الدينية كانت هى قائدة معارك التحرير فى سائر البلاد الإسلامية ضد الاستعمار ، حتى حركة كمال أتاتورك نفسها ، ولكن المؤسف أن الإسلاميين يزعمون ، والعلمانيون هم الذين يحصدون ، إنهم لصوص مدربون على سرقة ثمار الجهاد وثورات المجاهدين !



مبشرات من الواقع

وإذا تركنا التاريخ وما يحمله من مبشرات بالقوة الذاتية للإسلام ، والقوى المكنونة فى كيان هذه الأمة ، والتي تبرز عند الشدائد ، وعندما يوجد من يفجرها . . ونظرنا إلى واقع الأمة فى هذا العصر ، وجدنا مبشرات أخرى كثيرة ، جعلت هذه الأمة تثبت فى وجه الأعاصير ، ولا تذوب فى غيرها ، كما يذوب الملح فى الماء ، كما كان يراد لها ، بل جاهدت وقاتلت حتى تحررت من مستعمراتها ، وعادت تشعر بكيانيتها ، وتكتشف ذاتها من جديد ، رغم ما وضع لها من أغلال تكبلها ، وما صنع لها من أقفاص حديدية أو ذهبية تحبس داخلها .



● أمراض الواقع وآفاته :

لا أستطيع أن أجد ما يمور به واقع الأمة من أمراض وآفات عقلية ودينية وخلقية وعملية ، شكا منها الدعاة والمربون والمصلحون ، ولا يزالون يشكون .

فقد ضعف الدين بين الغالى فيه والجافى عنه ، كما قال الإمام الحسن البصرى ، أو بين (جامد وجاحد) ، كما قال أمير البيان

شكيب أرسلان . ذاك يصد الناس عن الإسلام بجموده ، والآخر يفتنهم عنه بجحوده .

وضعف التوحيد الأصيل - الذى هو جوهر الإسلام وروح الوجود الإسلامى كله - بين خرافات العرّافين ، وأباطيل الدجالين بين شرك العوام الذين يكادون يعبدون قبور الأموات ، وشرك الخواص الذين يكادون يعبدون قصور الأحياء !

وضعف الجانب الربانى فى الحياة الإسلامية ، حين وجدنا فى المسلمين من يضع الصلوات ، ويتبع الشهوات ، وحين قال : ﴿ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ (١) .

وظهر التصوف المنحرف ، والتصوف المحترف ، وقل التصوف الحقيقى المعبر عن روحانية الإسلام ووسطيته ، والذى عرفوه بأنه : الصدق مع الحق ، والخُلُق مع الخلق (٢) . وغلبت (رسوم) التصوف على (حقائقه) من ذكر باللسان من نوع ما قالت رابعة :

(١) المؤمنون : ١ - ٩

(٢) قد بدأنا بحمد الله وتوفيقه فى كتابة سلسلة عن التصوف الملتزم أو (فقه السلوك فى ضوء القرآن والسنة) ظهر منها ثلاثة أجزاء : الحياة الربانية والعلم .. النية والإخلاص .. التوكل .. وأسأل الله العون على إتمامها .

استغفار يحتاج إلى استغفار منه . ومن أورد موضوعه ، وحركات مصنوعة ، لا ترقق القلب ، ولا تذكر بالرب ، ولا بالدار الآخرة .

ضعفت الآداب والتقاليد الإسلامية الأصيلة في حياتنا الاجتماعية، وغلب على الكثيرين نوعان من التقاليد المخالفة لحقائق الإسلام : تقاليد موروثة من رواسب عصور الجمود والتقليد والتخلف ، ألصقت بالإسلام ، وليست منه في كثير ولا قليل ، وتقاليد وافدة ، جاءت بها الحضارة الغربية الغازية ، بما غلب عليها من مادية الفكر ، وعلمانية التوجه ، ونفعية السلوك ، كان لها أثرها في إشاعة التحلل ، وترسيخ الفردية والأنانية .

وأبرز ما رأينا ذلك في (قضية المرأة) فوجدنا من تغطي وجهها حتى لا يرى منه شيء ، وقد تسمح - أو يسمح لها - بظهور عينيها أو إحداهما ! ومن تخرج إلى الطريق مكشوفة الذراعين والساقين والنحر ، من « الكاسيات العاريات المميلات المائلات » . ووجدنا من يحرم الخاطب من رؤية مخطوبته - وهو مأمور بها شرعاً - ولا يراها إلا ليلة زفافه بها ، وهي تحرم من رؤيته كذلك . . ومن يترك له الحبل على الغارب ، ليتأبط ذراعها ، ويذهب بها إلى حيث يشاء في المسارح والسينمات أو المتنزهات والخلوات !

وضعف العقل الإسلامي ، فلم يعد يفكر ويبتكر ، ويضيف الجديد إلى الحضارة ، ويعدل القديم منها ، بل غدا عالة على غيره ، سواء

كان هذا الغير (المقدَّسين فى التراث) أم كان (المقدسين فى الغرب) . وطفى الجمود والتحجر على جنبات الحياة ، فغاب النظر فى العقيدة ، والاجتهاد فى الفقه ، والإبداع فى الأدب ، والابتكار فى الصناعة ، وزادت كلمتان خطيرتان كان لهما تأثيرهما فى الحياة العقلية الإسلامية ، الأولى : ما ترك الأول للآخر شيئاً ! والثانية : ليس فى الإمكان أبدع مما كان !

وانتشرت دعوى إغلاق باب الاجتهاد ! ولا يُدرى : من أغلقه ؟ ومن يملك إغلاق باب فتحه الله تعالى ورسوله ﷺ !

ومن هنا تأخرت الأمة الإسلامية ، التى كانت الأمة الأولى ما يقارب الألف عام ، وأضحت فى مؤخرة القافلة بعد أن كانت فى مقدمتها ، فكل أقطارها داخل فى مسمى (البلاد النامية) أو (العالم الثالث) ، وبعضها لو كان هناك عالم رابع لنسبوا إليه ، لما يعانون من شدة التخلف والفقر والمرض والجهل والامية .

وضعف الخلق الإسلامى الأصيل ، بغياب (شعب الإيمان) التى بين لنا الرسول الكريم أنها (بضع وسبعون شعبة أعلاها : لا إله إلا الله ، وأدناها : إماطة الأذى من الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان) ، وشاعت أخلاق النفاق فى مجتمعاتنا ، فوجدنا من « إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » . وانتشر الترف المدمر فى طبقة عاطلة يسر لها كل شيء ، والبؤس القاتل فى طبقات كادحة تتعب وتلهث ، ولا تكاد

تجد شيئاً ، وانقلبت القيم الاجتماعية الإسلامية بظهور الغنى بغير جهد ، وظهور ملوك البترول ، ولصوص الانفتاح ، وأصبحت الصورة الكاريكاتورية للمسلم : عربى فى خيمة ، وبجواره بئر بترول ، وفتاة جميلة !

وكثر الظلم فى العالم الإسلامى : ظلم الحكام المحكومين ، وظلم الأغنياء الفقراء ، وظلم الأقوياء الضعفاء ، وظلم أرباب العمل العمال ، وظلم الرجال النساء ، والظلم لا تقوم عليه دولة ، ولا تنهض به أمة .

وضعفت الشورى - بل ربما غابت تماماً - فى حياة المسلمين السياسية ، وحكم الناس فرعون وهامان وقارون ، بالحديد والنار تارة ، وبالغش والتزوير طوراً ، ولم يعد أئمة المسلمين خيارهم « الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلون عليهم (أى تدعون لهم) ويصلون عليكم » ، بل كل متكبر جبار ، مطبوع على قلبه ، لا يخاف الله ولا يرحم الناس ، وبعضهم مطبوع على عقله كذلك ، فلا هو يفقه فى الدين ، ولا هو يعقل فى الدنيا ، ومع هذا إذا استفتى الناس فى اختياره حصل على « التسعات » الأربع أو الخمس (٩٩٩ و ٩٩ ٪) التى أمست مثار سخرية العالم ، وبات الحاكم فى البلاد العربية لا ينزعه عن كرسيه إلا الموت أو الاغتيال أو الانقلاب عليه !



● الواقع المريض لا يستمر :

ولكن هذا الواقع الذى لا ينكر لم يترك يؤثر فى المسلمين دون مقاومة ، فهذا مناف لطبيعة الحياة الإسلامية ، وطبيعة الرسالة الإسلامية ، وطبيعة الأمة الإسلامية ، التى لا تجتمع على ضلالة ، ولا تزال فيها طائفة قائمة على أمر الله ، ممن يهدون بالحق وبه يعدلون . ولا يزال يبعث الله فيها أو يبعث لها ما بين قرن وآخر من يجدد لها دينها . وهو ما أثبتته التاريخ المقروء ، كما أثبتته الواقع المستقرأ .



● بين الأمس واليوم :

ومن قارن بين حال الأمة منذ قرن مضى ، وحالها اليوم ، بل من استقرأ حالها منذ خمسين سنة ، أو ثلاثين سنة ، وتأمل حالها فى هذين العقدين من الزمان ، سيجد أن أوضاعها تغيرت - إلى حد كبير - إلى ما هو أحسن وأمثل . وهذا أمر يلاحظه ويشهد به كل مراقب يقظ للأحداث ، فى كل جانب من جوانب الحياة ، وعلى مختلف الأصعدة والمستويات ، الفكرية والأخلاقية والسلوكية .

وأكتفى هنا بشهادة رجل غربى مثقف ، اهتدى إلى الإسلام عن بصيرة ، وآمن به عن بينة ، وهو الدكتور : مراد هوفمان ، صاحب كتاب (الإسلام كبديل) ، وإنما آثرت شهادته ، لأنه رجل واسع

المعرفة ، يعرف الألمانية - لغته الأصلية - والإنجليزية والفرنسية ،
وعمل سفيراً لبلاده - ألمانيا - فى الجزائر والمغرب ، ويتميز بنظرته
(الواقعية) ، ونزعتة (النقدية) ، حتى قال عن واقعيته : إنها
الواقعية القاسية . وقال عن نقده : اضطرت لأن أكون ناقدًا شديدًا
لكل من الغرب والعالم الإسلامى .

يقول هوفمان فى كتابه (الإسلام عام ٢٠٠٠) وفى فصله الثانى
تحت عنوان (قليل من التفاؤل) :

١ - قد يكون من المفيد أن نفحص العالم كما هو الآن ، فماذا
نرى إذا فركنا أعيننا قليلاً ؟ هل يتقدم الإسلام حقيقة ؟ أم أنه - إذا
تركنا المظاهر - ينحدر ؟ أو أن المسلمين يترددون على حواف
التاريخ ، فريسة سهلة للاستعمار المادى والعقلى ، كما هو حالهم
لعدة قرون ؟

دعونا هذه المرة نسمع من المتفائل أولاً :

٢ - يجب على المرء أن يعرف كيف كانت الحال بمكة والمدينة فى
القرن السابق ، ليتعرف على التقدم الحادث . لدينا أوصاف يُعتمد
عليها من الحجاج الغربيين أمثال : المسلم السويسرى بروكارت الذى
عاش فى مكة والمدينة ستة أشهر فى ١٨١٤ / ١٨١٥ ^(١) ، وقد أيد

(١) جوهان لودفيج بروكارت « مكة والمدينة » برلين ١٩٩٤ .

رواية بروكارت كل من المسلم البريطاني سير ريتشارد بيرتون الذى زار مكة والمدينة فى ١٨٥٣^(١) ، والألماني غير المسلم هيترش فون مالتزان الذى عاش فى مكة فى ١٨٦٠^(٢) .

اتفق المؤلفون الثلاثة على تدهور حالة الأماكن المقدسة .. القذارة ، انعدام الأمن ، انتشار الخرافات .. وصدق أو لا تصدق .. شرب الخمر والدعارة حول الحرم .. بل وحتى داخله أحياناً !

لم تقم الصلاة بانتظام ، حتى بين الحجاج ، الذى هبط عددهم إلى ٧٠.٠٠٠ عام ١٨١٤ (حسب تقدير بروكارت) ثم إلى ٣٠.٠٠٠ عام ١٨٦٠ (حسب تقدير مالتزان) .

وفى الحقيقة ، بعد غزو نابليون لمصر ، وبعد الانهيار والتمزق المتتالى للإمبراطورية العثمانية خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، تنبأ الكثير من السياسيين والمستشرقين باختفاء الإسلام تماماً ، وفى غضون حياتهم ! فدرسوا الإسلام كحضارة على وشك الاندثار ، عليهم أن يسجلوها لأجيال المستقبل . وبهذه الروح ، استطاع المستعمرون الفرنسيون تقدير عبد القادر^(٣) ، البطل

(١) ريتشارد بيرتون « حكايات شخصية لحاج بالمدينة ومكة » نيويورك ١٩٦٤ .

(٢) هيترش فون مالتزان « حجبى لمكة » توينجن ١٩٨٢

(٣) برونو إينه (عبد القادر) ١٩٩٤

الجزائري ، الصوفى ، رجل الدولة ، كشخصية فلكلورية غربية ، ذات قليل من الإزعاج ، حتى الشخصيات التى تعاطفت مع الإسلام ، جوتة (١٨٣٢) على سبيل المثال ، أعجبه تشدد الإسلام فى وحدانية الله ، وليس الإسلام كما يعيشه العالم الإسلامى (١) .

٣ - من يحج أو يعتمر اليوم ، يجد التقدم هائلاً عن حالة القرن الماضى ، فقد تم توسيع الحرم المكى والحرم المدنى بجمال واقتدار ليسعاً ٤٨٠.٠٠٠ ، ٦٥٠.٠٠٠ حاج ، وما زالا صغيرين أمام الزيادة الهائلة لمن يريدون الحج ، والذين يحجون الآن طبقاً لحصص محددة لكل دولة لا تتعدها ، مُنعت الكحوليات ، السرقات قليلة ، النساء لا يدخلن البلاد منفردات ، والصلاة على مدار الساعة أمام أنظار العالم .

٤ - اختلف موقف المستشرقين من الإسلام ، منذ عشرينات القرن الحالى ، وكان ذلك بداية لتغيرات أخرى إيجابية ، فلم تعد دراسة الإسلام على طريقة لورنس العرب لصالح الإمبريالية البريطانية ، بل تولته نخبة من الأكاديميين الأوروبيين ، منهم رينيه جينو (عبد الواحد يحيى) ، مارتن لنج ، تيتوس بروكاردت ، وليوبولد فايس (محمد أسد) . ومن بين المستشرقين الذين لم

(١) أحمد ثون دنفر (الإسلام وجوته) ميونيخ ١٩٩٠ ، ١٩٩٤ ، الطبعة الثالثة .

يعلنوا إسلامهم ، هناك چاك بيرك ، لويس مانيون ، ودينس ماسون، آنامارياشمل ، الذين بدوا على وشك الشهادة .

وكثير من زملائهم المستشرقين ، تحلوا فى دراستهم الإسلام بروح التعاطف والاعتناق بدلاً من الاشمئزاز والضييق .

وفى نفس الوقت ، منذ الثلاثينات ، وضعت حركات إحياء الإسلام - من القاعدة - فى معظم البلاد الإسلامية ، الإسلام فى الأجندة السياسية للبلد ، ونموذج لذلك حركة الإخوان المسلمين التى أسسها حسن البنا ^(١) فى مصر ، ودعاتها من أمثال سيد قطب (١٩٦٦) ، ومحمد الغزالى (١٩٩٦) كذلك أبو الأعلى المودودى (١٩٧٩) .

لم يجئ الإحياء من القاعدة فقط ، فالحركة الوهابية والحركة السنوسية ، وإلى حد ما حركة محمد عبده ، جاءت من أعلى ، وانتشرت بفضل الإمكانات المادية ، ومن أغنى أغنياء العالم اليوم سلطان برونائى ، والملك فهد ، والأمير زايد ، مما يعطى الدعوة الإسلامية ثراءً فعالاً . فكر - على سبيل المثال - فى ملايين النسخ من القرآن الكريم التى توزع مجاناً ، كذلك فى مجمع فهد لطباعة وتوزيع الكتب الإسلامية فى المدينة .

(١) (رسائل حسن البنا) بيركلى ، لوس أنجلوس ١٩٧٨ ، ما زالت مادة رئيسية .

والخلاصة ؛ أن ذلك التطوير ، نُظر إليه كتهديد أصولى ، مما جعل الإسلام يحتل القمة فى ما يشغل الإعلام العالمى فى الربع الأخير من القرن الحالى .

٥ - لا يتوقع اليوم أحد أن يختفى الإسلام ، ولكن أن يمتد ، بل وينفجر ! ويضع جنرالات الناتو فى حسابانهم أن أكثر المواجهات العسكرية احتمالاً فى المستقبل لن تكون بين الشرق والغرب ، ولكن بين الشمال والجنوب ، فالإسلام هو العدو المتنامى المرتقب .

يرجع بهذا الخوف المسلمون المهاجرون عند عودتهم لبلادهم ، أصبح تعداد المسلمين فى كل من ألمانيا والولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا بالملايين . وتقدر الإحصاءات الغربية إجمالى عدد المسلمين فى العالم بـ ٩٩٠ر٥٤٧ مليون - وهو رقم متحفظ - يسببون الخوف والهلع (١) .

تنشر المساجد فى العالم كله بين لوس أنجلوس ، روما ، زغرب ، حتى موسكو وبكين ، وفى قرطبة الحاضرة القديمة للخلافة الأموية فى الأندلس ، أسس المسلمون الإسبان فى ١٩٩٤ الجامعة الإسلامية الدولية (آفيروس) وليس بعيداً عن الجامع القديم الرائع

(١) انظر : مقالة (عدد المسلمين فى العالم) د . ل / دورية ، هامبورج ، فبراير ١٩٩١ ، يقول القرضاوى : والمعروف أن المسلمين فى العالم اليوم أكثر من مليار وربع . ولكن إحصاءات الغربيين أبداً تحاول التقليل من عدد المسلمين لأسباب لا تخفى على اللبيب .

فى قرطبة ، ىرفع الآذان ثانىاً للصلاة ، ىا لها من إثارة أن ىحدث
هذا بعد خمسائة سنة من طرد آخر مسلم من الأندلس !

٦ - فى التوقعات المستقبلية المذهلة لمحمد أسد (١٤١٢ / ١٩٩٢)
فى كتابه الهائل المشهور (الإسلام فى مفترق الطرق) - الذى كتبه
فى دلهى عام ١٩٣٤ - تكلم عن صعود الإسلام مقابل انحطاط
الحضارة الغربية المادية التى تشمل الاتحاد السوفىيتى ، وبمنهاج
مخالف لمنهاج السلفىين الاعتذارى والتبرىرى أمام الغرب ، بىن أن
الإسلام منهاج شامل كامل ناجح للحياة .

رأى أسد الحرب العالمية الثانية كصراع لا مفر منه بىن القوى
المادية فى الحضارة الغربية .

توقع أسد أن ىجلب التناحر على المادة الكوارث على المعسكرىن
الغربى والشرقى ، وىحط بالحضارة الغربية المادية - المملوءة زهوآ
بالنفس - حتى ىطلع الغرب - مرة ثانية - إلى الحقيقة الروحية « وتصبح
الدعوة الناجحة للإسلام ممكنة » والتأكد هنا من عندى .

بدت تلك الرؤىا غير دقيقة لمدة ستىن عامآ ، فبعد الحرب العالمية
الثانية ، بدلاً من أن ىنهار الغرب ، انقسم إلى معسكرىن ، ظهر
أنهما ىوازنان بعضهما البعض لعصور قادمة .

والىوم ، بعد إفلاس النظام والعقيدة الشىوعية منذ ١٩٩٠ ،
وعلامات الخطر بأزمة روحية أخلاقية فى الغرب ، تمر المسيحية بتغىىر

فى المشروع ، وما كان يسمى (مشروع التحديث) يتساقط أمام أعيننا .

بدأ منظرو وعلماء الغرب يشكّون إذا كانت افتراضاتهم الأساسية صحيحة أ . هـ (١) .



● استمرار حركة الإحياء والتجديد :

إن من خصائص الإسلام : أن حركة الإحياء والتجديد فيه من الداخل مستمرة ، ولا تنقطع حتى تقوم الساعة ، بواسطة (الوراث الحقيقين) لعلم النبوة ، الذين يقدمونه للناس خالصاً غير مشوب ، متكاملأ غير مجزأ ، بيّنا غير غامض (ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين) (٢) .

ولا غرو أن هيا الله لهذا الدين ، رجالاً يجددونه ، ويوقظون أمته ، ويصنعون أجيالاً على هداه ، ولم تضع جهودهم سدى ، ولم تذهب ثمرات البعث الإسلامى ، وحركات الإحياء والتجديد ،

(١) عن كتاب (الإسلام عام ٢٠٠٠) لمراد هوفمان ترجمه عادل المعلم ، نشر دار الشروق ، القاهرة ١٩٩٥ ص ١٥ - ١٨

(٢) الحديث رواه البيهقى وغيره من عدة طرق ضعيفة ، وقواه ابن القيم فى (مفتاح دار السعادة) ، وقد تكلمنا عنه فى كتابنا : (كيف نتعامل مع السنة النبوية) ص (٢٨) نشر دار الوفاء بمصر .

التي لم تكن - كما توهم بعض الناس - صيحة في واد ، أو نفخة في رماد ، بل أنشأت بفضل الله تعالى وتوفيقه ، صحوة إسلامية كبرى ، في سائر ديار العرب والإسلام ، بل حتى خارج ديار الإسلام ، حيث الأقليات والجاليات الإسلامية في الغرب والشرق ، صحوة أيقظت العقول والقلوب ، والعزائم ، وأعادت للناس الثقة بالإسلام ، والأمل في انتصاره بعد أن ظن من ظن أن راية الإسلام قد سقطت ، وأن ظله قد تقلص ، وأن أمته أمست في مؤخرة القافلة وأن العلمانية قد تغلغت بين أبنائه .

وزلزلت القوى المعادية للإسلام زلزالها ، فطفقت تكيد للصحوة ، تتآمر عليها ، وتتهمها بما تبرأ منه ، وتدعو إلى ضده ، مستغلة انحراف بعض فصائل الصحوة - للأسف - في الفهم أو في السلوك ، لضرب الصحوة كلها ، وقطع الطريق عليها ، ﴿ وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (١) .

وإذا كان بعض الناس يحاول أن يهون من قوة التيار الإسلامي ، ويقلل من شأن الصحوة الإسلامية ، مهولاً من قوة التيار العلماني المعادى للإسلام ، وشريعته ومنهجه لقيادة الحياة ، فأعتقد أنهم مخطئون في تقديراتهم ، أو هم يعلمون الحقيقة ، ولكنهم يتجاهلون عموماً لهوى في أنفسهم .

* * *

(١) الأنفال : ٣٠

● الصحوة الإسلامية وآثارها فى الحياة الإسلامية :

لا يستطيع عاقل منصف أن ينكر أثر (الصحوة الإسلامية) فى حياتنا المعاصرة ، تلك الصحوة التى شرقت وغربت ، وأضاءت بنورها ديار الإسلام ، ثم ذهبت إلى حيث يوجد المسلمون خارج أوطان الإسلام ، بين الأقليات الكبيرة والصغيرة ، والجاليات المنتشرة فى أنحاء العالم ، وهدى الله بها ملايين الشبان والشابات .

أيقظت هذه الصحوة العقول بالوعى ، وملأت القلوب بالإيمان والحماس ، ودفعت الإرادات إلى الالتزام والعمل ، وأثرت على النساء كما أثرت على الرجال ، وغيّرت من مفاهيم الأجيال الجديدة، فنقلتها من التفكير العلمانى إلى التفكير الإسلامى ، ومن الولاء للغرب إلى الولاء لله ولرسوله ، ومن التبعية إلى التحرر ، فنشأ جيل مسلم ملتزم بالإسلام : عقيدة وشريعة ، وفكراً وسلوكاً ، ورسالة وحضارة . رجونا أن يكون (جيل النصر المنشود) .

أثبتت هذه الصحوة وجودها على الصعيد الفكرى بما احتوته (المكتبة الإسلامية) المعاصرة من شتى الدراسات فى الجوانب الإسلامية المتعددة ، وكان الكتاب الإسلامى هو الأول فى سوق التوزيع ، وسجلت مئات الأطروحات للماجستير والدكتوراة فى مختلف جوانب الثقافة الإسلامية : فى الاقتصاد والسياسة والقانون والتربية والتاريخ ، وشتى العلوم الإنسانية والاجتماعية .

وأثبتت الصحة وجودها على الصعيد السلوكي ، فامتلات المساجد بالمصلين والمصليات ، وخصوصاً من الشباب ، وازدحمت بهم كذلك مواسم الحج والعمرة ، وعادت المرأة المتبرجة إلى الحجاب طوعاً .

وأثبتت الصحة وجودها على الصعيد الاقتصادي ، فنشأت البنوك الإسلامية والمؤسسات المالية الإسلامية ، وتوسعت في أقطار كثيرة من العالم الإسلامي .

وأثبتت الصحة وجودها على الصعيد السياسي ، فأصبح هناك تيار شعبي هائل ، ينادى بالعودة إلى الإسلام ، وتطبيق شريعة الإسلام ، وقامت دولة للإسلام الشيعة في إيران ، وللإسلام السني في السودان ، وأوشكت أن تقوم دولة في الجزائر ، لولا أن قطعوا الطريق عليها ، وحرموها أن تقطف ثمار اختيارها .

وأثبتت الصحة وجودها على الصعيد الجهادي ، فانتصرت في أفغانستان على الاتحاد السوفيتي ^(١) ، وفي البوسنة والهرسك على الوحش الصربي ، وزلزلت الانتفاضة وأشبالها ، والمقاومة الإسلامية ورجالها ، الكيان الصهيوني : الدولة التي لا تقهر ، والشوكة التي لا تكسر !

(١) ولكن مما يؤسف له : أن إخواننا الأفغان ، قد انتصروا على الاتحاد السوفيتي - إحدى القوتين الكبريين في العالم - ولكنهم لم ينتصروا على أنفسهم ! هداهم الله وأصلح ذات بينهم .

هذه الظواهر وغيرها حركت غرائز الشر فى القوى المعادية للإسلام وأمتة وصحوته ، فاجتمعت على الكيد له ، والمكر به ، والتربص بصحوته ، وقد قال إسحاق رابين فى مؤتمر الدار البيضاء : إن أعداءنا الكونيين ثلاثة : الأصولية ، والجوع ، والمخدرات ! والحقيقة أنه ذكر الجوع ، والمخدرات للتغطية وذو الرماد فى العيون ، وإنما قصده الأساسى : الأصولية ، وإن شئت الترجمة الحقيقية لها فهى (الصحوة الإسلامية) !

وإذا كنا نعيش فى الزمن الإسرائيلى ، زمن السامرى ! وإسرائيل هى الأمر الناهى فى المنطقة ، وقد عملت بمهارة على (تهويد العقل العربى) وكذلك (تهويد الإعلام العربى) فلا تعجب إذا رأيت الحرب تعلن على الصحوة الإسلامية ، والدعوة الإسلامية ، والحركة الإسلامية ، تحت عناوين شتى ، وكل ذلك لخدمة هدف واحد ، هو : بقاء إسرائيل ، وسيادة إسرائيل ، وتوسع إسرائيل ، وهيمنة إسرائيل ، ولكن الصحوة باقية إن شاء الله .



● التيار الإسلامى أقوى وأرجح فى الميزان :

أجل إن الصهيونية - وحليفتها الصليبية - تخططان لضرب الإسلام وصحوته ، وتمدان التيارات المعادية للإسلام بكل أسباب القوة والانتشار والنفوذ .

ولكننا إذا تعمقنا فى تقدير وزن القوى التى لنا والتى علينا ؛
وجدنا كفة التيار الإسلامى - بحمد الله - أرجح وأثقل فى الميزان .

(أ) فنحن بالإسلام نملك رصيـداً ضخماً ، لا يمكن أن تملكه
دعوة أخرى وافدة من هنا وهناك ، إن وراء الإسلام (قوة الجماهير)
الغفيرة المؤمنة بربها وقرآنها ومحمدّها ، المتطلعة إلى من يقودها
باسم الله ، ويضع يدها فى يد رسول الله ﷺ وعندئذ تبذل المال
عن رضا واعتباط ، والروح عن طواعية وارتياح . إن هذه الأمة
متدينة بفطرتها ، وبتاريخها ، والدين هو مفتاح شخصيتها ، وصقل
مواهبها ، وصانع بطولاتها ، وسر انتصاراتها الكبرى ، وهى أسرع
استجابة إليه ، والتفاقاً به ، من أى دعوة دخيلة جاء بها غاصب ،
محتل ، أو بذر بذورها طامع متربص .

وقد جربنا أثر ذلك فى العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣ هـ
(٦ / ١٠ / ١٩٧٣) م ، وظهر أثر (الله أكبر) فى الميدان .

(ب) ونملك كذلك (قوة المنهج) الذى ندعو إليه ، قوة مبادئ
الإسلام العظيمة الخالدة ، نملك (قوة الإسلام) التى تتمثل فى
وضوحه وشموله ، وعمقه ، واتزانه وتأثيره . الإسلام : عقيدة
تخاطب العقل ، وعبادة تركزى النفس ، وأخلاقاً تلائم الفطرة ،
وأحكاماً تحقق التوازن والعدل ، تطارد المفاسد ، وتجلب المصالح ،
وتعطى كل ذى حق حقه ، فلا طغيان لفرد على مجتمع ، كما هى

فلسفة الرأسمالية ، ولا لمجتمع على فرد ، كما هي فلسفة الماركسية ، بل توازن وتكامل ، بلا طغيان ، ولا إخسار فى الميزان .

ومن أبرز معالم القوة فى هذا الإسلام : أنه ليس من وضع البشر ، بل هو من تنزيل رب العالمين ، وهذا العنصر الإلهى فيه جعله يبرأ من الغلو والتقصير ، ومن العجز والقصور ، الذى يصاب به دائماً كل منهج يضعه البشر لأنفسهم .

وهذه الميزة أيضاً تجعله أدنى إلى القبول والإذعان له من جمهرة الناس ؛ لأنه انقياد من الإنسان لربه ، الذى خلقه فسواه ، وأمده بنعمته ، وغمره برحمته ، والذى يرجو مثوبته ، ويخشى عقابه ، على عكس المبادئ الوضعية ، التى لا يطيعها الإنسان إلا خوفاً أو طمعاً ، والتى يحاول أن يتهرب من سلطانها ما استطاع .

ومن أسباب قوة الإسلام : أنه منهج نابع من أعماق الأمة ، وليس دخيلاً ولا طارئاً عليها ، بحيث تحتاج إلى ضغط مادى ، أو معنوى حتى تسيغه وترضى بتجرع كأسه .

(ج) إن هذه القوة المذخورة فى منهج الإسلام ، لا يعادلها إلا القوى المكنونة فى حنايا أمة الإسلام .

تلك القوى التى انفجرت يوماً والمسلمون فى ضعف وتفرق وخذلان ، فحطمت الصليبيين فى (حطين) ، وهزمت التتار

فى (عىن جالوت) ، وأسرت لوىس التاسع فى (دار ابن لقمان)
بالمنصورة ..



● القوى التى تملكها الأمة :

إن القوى التى تملكها أمتنا الإسلامية لىست بالهينة ولا اليسيرة ،
إذا أحسنت توظيفها والاستفادة منها ، فهى فى الحق قوى كبيرة
وهائلة .

١ - القوة البشرية :

أولى هذه القوى : القوة البشرية العديدة ، فأمتنا تملك اليوم من
البشر ما يزيد على المليار والربع من المسلمين المؤمنين بعقيدة التوحيد ،
منتشرين فى قارات العالم الست .

صحيح أن العبرة بالكيف لا بالكم ، ولكن الكم له أهمية أيضاً ،
وسنرى فى تقارير الغربىين كيف يخافون من تزايد أعداد المسلمين ،
فى حين يعانون هم منذ مدة من تناقص النسل عندهم بصورة
أصبحت تفرزعهم .

إن الكثرة فى حد ذاتها نعمة ، وهى شرط لا بد منه لأى تفوق
اقتصادى أو حضارى ، ولهذا تسعى الأمم إلى تعويض هذا بالتكتل
فىما بينها رغم اختلافها فى العروق واللغات والأديان ، والتاريخ .

ومن هنا ذكر القرآن فى معرض الامتنان والإنعام قوله تعالى :
﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ ﴾ (١) .

والشاعر العربى يقول : وإنما العزة للكاثر !

والشاعر الآخر يقول فى مقام الفخر بكثرة قومه :

ملأنا البر حتى ضاق عنا ونحن البحر نملؤه سفيناً !

٢ - القوة المادية والاقتصادية :

وثانية هذه القوى : القوة المادية والاقتصادية ، فأمتنا تملك من المعادن والثروات المذخورة فى باطن الأرض ، والثروات المنشورة على ظاهرها ، والثروات المائية والبحرية ، ما لا تملكه أمة أخرى .

عندنا الأراضى الخصبة من السهول والوديان ، وعندنا الهضاب والجبال ، وعندنا البحار والبحيرات ، والأنهار العظام ، وعندنا العيون والآبار ، وعندنا مخزون المياه الجوفية ، وعندنا المعادن المهمة التى يحتاج إليها العالم ، ويكفى أن لدينا معظم مخزون العالم من النفط .

وموقعنا الجغرافى كذلك له قيمة كبيرة : استراتيجية وحضارية ، فهو ملتقى القارات ومنبع الحضارات ، ومهبط الرسالات السماوية الكبرى : اليهودية والمسيحية والإسلام .

(١) الأعراف : ٨٦ .

٣ - القوة الروحية :

وثالثة هذه القوى التى تملكها أمتنا : القوة الروحية ، قوة الرسالة التى تؤمن بها ، وتدعو إليها ، وتحيا لها وتموت عليها : رسالة الإسلام العامة الخالدة ، التى ختم الله بها النبوات والرسالات .

ففى الرسالة التى تميزت بالربانية ، فمصدرها الله ، وغايتها إلى الله : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

نحن المسلمين وحدنا الذى نملك الوثيقة الإلهية الوحيدة التى تتضمن كلمات الله الأخيرة للبشرية ، سالمة من كل تحريف وتبديل : القرآن الكريم الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وتميزت هذه الرسالة كذلك بالنظرة الشمولية : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٢) .

وتميزت بنزعتها الأخلاقية ، حتى قال نبيها : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » (٣) .

(١) الأنعام : ١٦٢ (٢) النحل : ٩٠

(٣) رواه عن أبى هريرة : البخارى فى الأدب المفرد بلفظ : (صالح الأخلاق) رقم ٢٧٤ ، أحمد : ٣٨١/٢ ، الحاكم : ٦١٣/٢ ، وصححه ووافقه الذهبى ، وذكره الألبانى فى الصحيحة برقم ٤٥ .

وتميزت بنزعتها الإنسانية والعالمية : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

وتميزت بنظرتها الواقعية ، فشرعت للضرورات أحكامها ، وقدرت للإنسان أعذاره ، وشرعت الرخص والتخفيفات .

وتميزت بخصيصة الوسطية : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (٢) ، فهي توازن بين المادة والروح ، بين العقل والقلب ، بين الدنيا والآخرة ، بين الحقوق والواجبات ، بين الفرد والمجتمع ، بلا طغيان ولا إخماس .

والعالم أحوج ما يكون إلى هذه الرسالة ، لتنقذه من المادية المسرفة ، ومن النفعية المجحفة ، ومن الإباحية القاتلة ، ومن عصر الخوف والقلق والاكتئاب واليأس إلى عصر الأمن والسكينة والبهجة والأمل .



● تحذيرات الأجانب من القوة المذخورة في الإسلام وأمته:

إننا نحن المسلمين قد نجهل القوى المذخورة لديننا ، ولكن الأجانب الدارسين لطبيعة أمتنا ، ومذخور الطاقات في شعوبنا ،

(٢) البقرة : ١٤٣

(١) الأنبياء : ١٠٧

هم الذين يدركون حقيقة ما نملك من قوة ذاتية ، يحسبون لها ألف حساب ، بل يساورهم وهم مفزع من خشية انطلاقها يوماً من الأيام ، يقول البروفسور « جب » فى كتابه : (وجهة الإسلام) : (إن الحركات الإسلامية تتطور عادة بسرعة مذهلة تدعو إلى الدهشة ، فهى تنفجر انفجاراً مفاجئاً قبل أن يتبين المراقبون من أماراتها ما يدعو إلى الاسترابة فى أمرها ، إن الحركات الإسلامية لا ينقصها إلا الزعامة ، لا ينقصها إلا صلاح الدين من جديد) .

وكتب الرحالة الألمانى (بول أشميد) كتاباً خاصاً بهذا الموضوع سماه : (الإسلام قوة الغد) ظهر سنة ١٩٣٦ م ومما قال فيه : إن مقومات القوى فى الشرق الإسلامى ، تنحصر فى عوامل ثلاثة :

١ - فى قوة الإسلام (كدين) وفى الاعتقاد به ، وفى مثله ، وفى مؤامحاته بين مختلفى الجنس واللون والثقافة .

٢ - وفى وفرة مصادر الثروة الطبيعية فى رقعة الشرق الإسلامى الذى يمتد من المحيط الأطلسى ، على حدود مراکش غرباً إلى المحيط الهادى ، على حدود أندونيسيا شرقاً ، وتمثيل هذه المصادر العديدة لوحدة اقتصادية سليمة قوية ولاكتفاء ذاتى ، لا يدع المسلمين فى حاجة مطلقاً إلى أوروبا أو إلى غيرها إذا ما تقاربوا وتعاونوا .

٣ - وأخيراً أشار إلى العامل الثالث وهو : خصوبة النسل

البشرى لدى المسلمين ، مما جعل قوتهم العددية قوة متزايدة (١) .

ثم قال : (فإذا اجتمعت هذه القوى الثلاث ؛ فتآخى المسلمون على وحدة العقيدة ، وتوحيد الله ، وغطت ثروتهم الطبيعية حاجة تزايد عددهم ؛ كان الخطر الإسلامى خطراً منذراً بفناء أوروبا وبسيادة عالمية فى منطقة هى مركز العالم كله) .

ويقترح (بول أشميد) هذا - بعد أن فصل هذه العوامل الثلاثة عن طريق الإحصاءات الرسمية ، وعما يعرفه عن جوهر العقيدة الإسلامية ، كما تبلورت فى تاريخ المسلمين ، وتاريخ ترابطهم وزحفهم لرد الاعتداء عليهم - أن يتضامن الغرب المسيحى شعباً وحكومات ، ويعيدوا الحرب الصليبية فى صورة أخرى ملائمة للعصر ، ولكن فى أسلوب نافذ حاسم (٢) .

وقال (روبرت بين) فى مقدمة كتابه الذى سماه : (السيف المقدس) : (علينا أن ندرس العرب ونسبر أفكارهم ؛ لأنهم حكموا العالم سابقاً ، وربما عادوا إلى حكمه مرة أخرى ، والشعلة التى أضاءها محمد لا تزال مشتعلة بقوة ، وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الشعلة لا تطفأ ، ولهذا كتبت هذا الكتاب لكى يقف

(١) لسمع ذلك دعاة تحديد النسل بإطلاق فى العالم الإسلامى !

(٢) ترجمة الدكتور محمد البهى فى إحدى محاضراته .

القراء على أصل العرب ، وسميته باسم السيف ذى النصلين الذى ناله محمد فى وقعة بدر تذكاراً لانتصاره ؛ لأن السيف أصبح رمزاً لمطالبه الإمبريالية (١) .

وبغض النظر عما فى هذا الكلام من تحامل ، وما يغلى به من حقد ، فهو يبين لنا مبلغ قوى المسلمين فى نظر الأجانب عنهم ، وهم اليوم يسمعون الإسلام (الخطر الأخضر) بعد أن زال (الخطر الأحمر) بانتهاء الاتحاد السوفيتى ، وبعد أن تقاربوا مع (الخطر الأصفر) المتمثل فى الصين ، والإسلام ليس خطراً إلا على الإلحاد والفساد والانحلال والاستعباد .

واسمح لى أن أسوق لك مثلاً معاصراً على القوة الذاتية فى هذا الإسلام ، ذلك المثل هو (تركيا) . تركيا التى أراد أتاتورك وحزبه أن يعرفوها من لباس الإسلام وأخلاقه وتقاليده وأحكامه ولغته وكل ما يمت بصلة إليه ، حتى ألغى غطاء الرأس ، وحتى الكتابة بالحرف العربى ! فقد جعل غطاء الرأس إجبارياً هو القبعة ، وجعل حروف الكتابة هى اللاتينية ، منع الكلام بالعربية ولو فى الأذان ! وأباح للمسلمة أن تتزوج اليهودى أو النصرانى ، وسوى بين الذكر والأنثى

(١) ص ١٧ من الكتاب بالإنجليزية ، وقد نقلنا هذه الفقرة من تقرير للدكتور إسحاق موسى الحسينى عن هذا الكتاب ، قدمه إلى الإدارة العامة للثقافة بالأزهر فى أواخر الخمسينات .

فى الميراث ، وجعل القوانين كلها غربية لحماً ودماً وعظماً ، حتى القوانين التى تسمى (الأحوال الشخصية) وطوردت الثقافة الإسلامية والعربية ، وحارب أهلها بل قوتلوا وقتلوا ، وظن الناس أن شمس الإسلام قد غربت عن تركيا إلى الأبد ، وإن ظل الإسلام قد تقلص عنهم إلى غير رجعة ، ومرت على ذلك عشرات من السنين جاءت راکدة ، كفيلة بأن تميت الإسلام فى الصدور ، وأن تدب معها عقارب اليأس إلى القلوب .

ولكن الإسلام الكامن فى صدور الشعب التركى لم يمت . يمكن أن نقول أنه ركد أو نام ، حتى واثته الفرصة فظهر قوة مؤثرة . ولم نزل نقرأ ونسمع عن امتداد قوة الدين هناك ، وانكماش الإلحاد والإباحية ، وخفض صوتهما يوماً بعد آخر ، رغم ما لدهما من إمكانات مادية وأدبية ، وما يلقى دعائهما من مساعدات داخلية وخارجية . وظهرت المدارس القرآنية بالآلوف ، وعادت المساجد تبنى ، والكتب الإسلامية تنشر ، والتوجهات الإسلامية تظهر وتؤثر فى الحياة .

ولقد أدت انتفاضة الدين فى تركيا أخيراً إلى حصول (حزب الرفاه) الإسلامى على الأغلبية النسبية فى البرلمان التركى ، رغم العقبات التى توضع فى طريقه .

إن آية الآيات فى هذا الدين وأثره فى أمته ، ما ذكرناه من قبل : أنه أشد ما يكون قوة وأعظم ما يكون رسوخاً وشموخاً ، حين تنزل

بساحته الأزمات ، وتحقق به الأخطار ، ويشتد على أهله الكرب ،
وتضيق بهم المسالك ، ويقل المساعد والنصير .

حينئذ ، يحقق هذا الإسلام معجزته ، فتنبعث الحياة فى الجثمان
الهامد ، ويتدفق دم القوة فى عروق الأمة ، وينطلق جنود الحق
انطلاقه المارد من القمم ، فإذا النائم يصحو ، والجبان يتشجع ،
والضعيف يقوى ، والشارد يعود ، والشيت يتجمع ، وإذا هذه
القطرات المتتابعة المتلاحقة من هنا وهناك ، تكون سيلاً عارماً لا
يقف دونه حاجز ولا سد من السدود (١) .



● محن الدعاة :

أما اعتراض البعض بالمحن الشداد التى تصب على رؤوس الدعاة
إلى الإسلام ، والضربات القاسية التى تنال عليهم من هنا وهناك ،
فمن ذا الذى يأمل أن تقوم لهؤلاء المضطهدين المشردين المعذيين
قائمة ؟ أو يرتفع لهم علم ؟ ، أو ينتصر فى الناس نظام يدعون
إليه ، ورسالة يؤمنون بها ، وهم فى كل يوم بين المطرقة والسندان ؟
فنقول لهؤلاء المعارضين أو المتوجسين :

إن هذه المحن التى تذكرونها ليست علامة ضعف أو موت لدعاة
الإسلام ، بل هى دليل حياة وحركة وقوة ، فإن الميت الهامد لا
يُضْرَب ، ولا يؤذى ، إنما يضرب ويؤذى الحى المتحرك المقاوم .

(١) انظر كتابنا (من أجل صحوة راشدة) ص ١٠٤ ، ١٠٧ .

إن الدعوة التى لا يضطهد أصحابها ، ولا يؤذى دعائها : دعوة تافهة أو ميتة ، أو دعائها - على الأقل - تافهون ميتون .

ثم إن هذه المحن والاضطهادات برهان على حيوية المبدأ نفسه ، مبدأ الإسلام ، فهو يقدم كل حين شهداء فى معاركه ، يروون شجرته بدمائهم ، ويبنون صرح مجده بأشلائهم .

وهذه المحن أبلغ معلم ، وأعظم مرب ، لأصحاب الدعوات ، باعتبارهم أفراداً ، تصفو أنفسهم بالشدة ، وتتمحص قلوبهم بالمحنة ، وقد جاء فى الحديث .

« مثل المؤمن حين يصيبه الروعك أو الحمى ، كمثل الحديد تدخل النار ، فيذهب خبثها ، ويبقى طيبها » (١) .

وحسبنا قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ * إِنَّ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ، وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلَيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿ (٢) .

* * *

(١) رواه البزار كما فى كشف الأستار ، من حديث عبد الحميد بن عبد الرحمن بن أزهر ، عن أبيه : ٣٦٢/١ (٧٥٦) ، وقال الهيثمى فى المجمع : (٣٠٢/٢) : رواه البزار والطبرانى فى الكبير وفيه من لا يعرف . ورواه الحاكم فى المستدرک وصححه ووافقه الذهبى : ٧٣/١ ، ٣٤٨ ، وتعقبهما الألبانى ، وأثبت أن إسناده الحديث حسن ، وهو صحيح بما له من شواهد معروفة ، الصحيحة : ٤/١٠ ، ٢٩١ (١٧١٤) .

(١) آل عمران : ١٣٩ - ١٤١

مبشرات من السنن الإلهية

وهناك مبشرات أخرى مستمدة من سنن الله في الخلق وفي الاجتماع الإنساني ، وهى سنن وقوانين ثابتة تجرى على الآخرين ، كما جرت على الأولين ، وتجرى على المسلمين كما تجرى على المشركين ، لا تتخلف ولا تتبدل ، كما قال سبحانه : ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ (١) .

فإذا نظرنا إلى هذه السنن الإلهية وجدنا مجموعة منها فى صفنا نحن المسلمين ، ودعاة الإسلام ، من ذلك :

* *

● سُنَّةُ التَّدَاوُلِ :

من هذه السنن : سنة [التداول] أو [المداولة] للأيام بين الأمم والأقوام ، وهى السنة التى قررتها الآية الكريمة من سورة آل عمران ، وقد نزلت بعد غزوة أحد التى أصاب المسلمين فيها ما أصابهم ، قال عز وجل : ﴿ إِنَّ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (٢) .

ولهذا قيل : الدهر يومان ، يوم لك ، ويوم عليك ، وقيل : دوام الحال من المحال .

(٢) آل عمران : ١٤٠

(١) فاطر : ٤٣

فالأحوال تتبدل ، والدنيا تتحول ، والعالم يتغير . وكم من
 غنى افتقر ، ومن فقير اغتنى ، وكم من عزيز ذل ، وذليل عز ،
 وكم من موسر أعسر ، ومن معسر أيسر ، وقد قال تعالى : ﴿ فَإِنَّ
 مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (١) .
 وقال تعالى : ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ (٢) .

ومن نظر فى أحوال الأمم عبر التاريخ يجد شعلة الحضارة تنتقل
 من أمة إلى أمة ، ومن يد إلى أخرى .

ومن حسن حظنا أن [سنة التداول] أو [قانون المداولة بين
 الناس] يعمل معنا لا ضدنا ، وكما قال الإمام حسن البنا : إن
 الدور لنا لا علينا !

فقد كانت قيادة العالم قديماً فى يد الشرق ، على أيدي الحضارات
 الفرعونية والآشورية والبابلية والكلدانية والفينيقية ، والفارسية
 والهندية والصينية . ثم انتقلت إلى الغرب ، على يد الحضارة
 اليونانية ذات الفلسفة الشهيرة ، والرومانية ذات التشريع المعروف ،
 ثم انتقلت هذه القيادة مرة أخرى إلى الشرق على يد الحضارة العربية
 الإسلامية، وهى حضارة متميزة جمعت بين العلم والإيمان ، بين
 الرقى المادى والسمو الروحى ، ثم غفا الشرق وغفل عن رسالته .

(٢) الطلاق : ٧

(١) الانشراح : ٥ ، ٦

فأخذ الغرب الزمام ، وكانت له القيادة مرة أخرى ، ولكنه لم يرع أمانة هذه القيادة ، بل أفلس فى ميدان الروح والأخلاق ، وفُرط فى العدل ، وأعلى القوة على الحق والمصالح على القيم ، والمادة على الروح ، والجماد على الإنسان ، وكال بمكيالين فى التعامل مع القضايا البشرية ، فكان من سنة الله أن تنتقل الشعلة إلى غيره . والمفروض حسب استقرار التاريخ : أن تعود إلى الشرق مرة أخرى الشرق الذى يملك رسالة غير رسالة الغرب ، وهو الشرق الإسلامى ، فعليه أن يتهياً لذلك ، ويعد له العدة ، كما قال تعالى : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَهْلِكَ عِدْوُكُمْ وَيَسْتَخْلَفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (١) ، ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (٢) . وليس بعجيب أن تنتقل عجلة القيادة العالمية من الغرب إلى الشرق ، والغرب الآن هو المتفوق والمقتدر ، والشرق هو المتخلف والعاجز !

فالواقع أن المادية فى الغرب قد تغلغلت فى الفكر والسلوك والحياة ، وأن التحلل والفساد الأخلاقى قد وصل إلى النخاع ، وأن الحضارة لا يمكن - وفق سنن الله - أن تستمر بلا أخلاق ، والأخلاق لا يمكن أن تنمو وتؤثر إلا فى ظلال الإيمان (٣) .

(٢) الأنبياء : ١٠٥

(١) الأعراف : ١٢٩

(٣) انظر : فصل آفات الحضارة المعاصرة ، وفصل : عقلاء الغرب يدقون أجراس الإنذار فى كتابنا (الإسلام حضارة الغد) ص ٢٧ - ١١٦ - نشر مكتبة وهبة .

ولقد رأينا ورأى العالم كله ، كيف انهارت القوة العالمية الثانية - وهى الاتحاد السوفيتى - فجأة ، وبلا مقدمات تذكر ، برغم ما يملك من ترسانة نووية ضخمة ، وأسلحة استراتيجية جبارة ، وقوة عسكرية واقتصادية هائلة ، وما ذلك إلا لأن الخراب كان فى الباطن لا فى الظاهر ، وفى المعنويات قبل الماديات .

والغرب المنفرد الآن بالقوة وبالتأثير فى الساحة العالمية ليس أحسن حالاً من نظيره السوفيتى .



● سنة التغير :

ومن السنن الإلهية التى نجدها فى صف المسلمين ، ونعدها من المبشرات : [سنة التغير] التى قررها القرآن الكريم فى أكثر من آية . فالذين يتغيرون من الخير إلى الشر ، ومن الاستقامة إلى الانحراف ، من الصلاح إلى الفساد ، ومن البصيرة إلى العمى ، يغير الله ما بهم من حال النعمة إلى النقمة ، ومن القوة إلى الضعف ، ومن العزة إلى الذل ، ومن الرخاء إلى الشدة ، وهذا ما ذكره القرآن فى سورة الأنفال بعد أن ذكر مصير آل فرعون والذين من قبلهم ، الذين كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم .

وقال عز من قائل : ﴿ ذَلِكَ بَأْسَ اللَّهِ لِمَ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ * كَدَّابِ

آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ، وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١﴾ .

وهذه السنة إذا طبقت على أهل الحضارة الغربية الذين مكن الله لهم الأرض ، وسخر لهم قواها ، وآتاهم من كل الثمرات ، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ، ووسع عليهم الأرزاق فأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ولكنهم - كما ذكرنا في [سنة التداول] خانوا أمانة القيادة والمسؤولية ، وطغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد ، وبعبارة وجيزة : أنهم غيروا ما بأنفسهم إلى الشر والفساد ، فهم أهل لأن يعمل الله فيهم سنته فيغير ما بهم . ويسحب القيادة منهم ، وينقلها إلى غيرهم .

وتتمة هذه السنة : أن الذين تتغير أنفسهم ، أو يتغير ما بأنفسهم من الشر إلى الخير ، ومن الضلالة إلى الهدى ، ومن الانحراف إلى الاستقامة ، ومن الفساد إلى الصلاح ، ومن الكسل إلى العمل ، ومن الرذيلة إلى الفضيلة ، فهم أهل أن يغير الله حالهم أو يغير ما بهم من الضعف إلى القوة ، ومن الذلة إلى العزة ، ومن الهزيمة إلى النصر ، ومن الخوف إلى الأمن ، ومن الاستضعاف إلى التمكين .

(١) الأنفال : ٥٣ ، ٥٤

وهذا ما تشير إليه الآية الأخرى في سورة الرعد ، وهى قوله تعالى :
﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (١)

وهذه السنة تمنحنا - نحن المسلمين - الأمل فى التغيير وتحسين الأحوال ، فقد رأينا الكثير من المسلمين فى عصر الصحوة الإسلامية ، يتغيرون تغيراً جذرياً من الإعراض عن الإسلام إلى الإقبال عليه ، من الجهل بأحكامه ، إلى الحرص على التفقه فيه ، من التسبب والشرود عن تعاليمه إلى الالتزام بها ، من انشغال الفرد بخاصة نفسه وعدم اهتمامه بأممته إلى حمل هموم الأمة ، والمشاركة فى قضاياها بإخلاص وإيجابية ، من الجرى وراء اللذات واتباع الشهوات إلى إحياء الدعوة وتبنى الجهاد للدفاع عن الدين وحرماته ، من التكشف والتعري عند النساء إلى الالتزام بالحجاب ، من البعد عن المساجد إلى عمارتها بالصلوات والدروس .

وكل هذه الأعمال والآثار تشعرنا أن الأمة قد تغيرت إلى حد كبير ، ومقتضى عدل الله تعالى وستته ألا يتخلى عنها ، وأن يكافئها على هذا التغير النفسى والسلوكى العميق بأن يغير ما بها ، ويحولها إلى حال أفضل .

* * *

(١) الرعد : ١١

وقفات لا بد منها

أخى القارئ الكريم ؛ أحسب أن شعاع الأمل الذى يضىء جوانحي قد وصل إلى قلبك ، وأن غيوم اليأس والإحباط التى خيمت على أفئدة الكثيرين قد تقشعت أو أوشكت ، وأن الشعور بأن نصر الله قريب قد ساد وهيمن ، رغم المؤتمرات التى تعقد ، والمؤامرات التى تدبر ، والحملات التى تشن على الإسلام ، باسم التطرف حينًا ، والإرهاب حينًا ، والأصولية أحيانًا !

أجل ، إنى - برغم الضغوط الهائلة التى تتعرض لها الصحوة الإسلامية ، والضربات الوحشية التى توجه للحركة الإسلامية ، والمكايد الخفية التى تبيت للأمة الإسلامية ، وغفلة القائمين على أمر الأمة ، بل مساعدتهم لأعدائها على شعوبهم - برغم هذا كله أنا متفائل بمستقبل الأمة والصحوة والدعوة .

ولطالما أعلنت فى أكثر من مناسبة فى محاضراتى ودروسى : أنه إذا كان القرن التاسع عشر قرن الرأسمالية ، والقرن العشرون قرن الشيوعية ، فإن القرن الحادى والعشرين هو قرن الإسلام .

ويمكن أن نقول : إذا كان القرن التاسع عشر قرن المسيحية ، والقرن العشرون هو قرن اليهودية ، وقيام دولة إسرائيل ، وانتصارها

على بضع وعشرين دولة عربية ، وبضع وأربعين دولة إسلامية ، فإن القرن الحادى والعشرين هو قرن الإسلام !

أعنى إذا نظرنا إلى الإسلام ديناً بين الدينين الشهيرين : اليهودية والمسيحية ، أو إذا نظرنا إليه باعتباره نظاماً بين النظامين العالميين : الرأسمالية والشيوعية - فإن الإسلام يتميز بأنه نسيج وحده ، ويحمل عناصر الخلود فى طبيعته ، والإحياء لأُمته ، والانتشار لدعوته ، مع ميسر حاجة العالم إليه ، بوصفه رسالة التوازن الوحيدة ، التى يفتقر إليها الإنسان .

وأحمد الله أن الذى قلته منذ زمن وجدت اليوم من يشاركنى فيه : أن القرن القادم هو قرن الإسلام بإذن الله .

قال ذلك الدكتور (مراد هوفمان) فى كتابه (الإسلام عام ٢٠٠٠) الذى أكد أن الفرص متاحة أمام الإسلام ليصبح ديانة العالم الأولى فى القرن ٢١ .

وقاله (جيم ميران) عضو لجنة الشؤون الخارجية بالكونجرس الأمريكى ، الذى دعا الأمريكين إلى وجوب التعرف على الإسلام دين السلام والمسامحة ، الدين الذى يحث على الكد والاجتهاد ، ويحب النظام والالتزام ، ويفيىض بالحب واللفظ ، وهو يعتبر الرسول محمداً أعظم إنسان عرفه التاريخ ، ويجب التعرف على جوانب عظمتة التى كان يتمتع بها ، وكذلك عدد كبير من أصحابه ،

وكل شعوب العالم يجب أن تتعرف على التعاليم التى جاء بها محمد ، ولكن للأسف لم يحدث ذلك لسببين :

الأول : هو اتخاذ غير المسلمين موقفًا من هذه التعاليم ، منطلقه التعصب والتحيز والجهل .

والثانى : هو عدم سعى المسلمين حثيثًا لإطلاع غيرهم على عظمة دينهم .

وانتهى فى حديثه الطويل مع مدير تحرير مجلة (المجتمع) الكويتية إلى قوله : أنا أعتقد أن القرن القادم هو قرن الإسلام ، وقرن الثقافة الإسلامية ، وستكون هذه فرصة لإحلال مزيد من السلام والرفاهية فى كل بقاع العالم أهـ (١) .



● تنبيه على أمرين :

أريد أن أنبه فى هذه الوقفات على أمرين مهمين :

الأول : أن كل الدعاة والمصلحين المجددين كانوا من ذوى القلوب الآملة فى الله ، الواثقة بالنصر ، الراجية للغد ، المرتقة لطلوع الفجر .

(١) انظر : حوار أحمد منصور مع جيم ميران فى مجلة (المجتمع) العدد ١١٩٠ ، الصادر فى ١٩٩٦/٣/٥ م .

ولا يصلح داعية يغمره اليأس من نجاح دعوته ، وانتصار رسالته ، بل الداعية الحق هو الذى يهزم الأمل فيه اليأس ، ويغلب الرجاء فيه عوامل الخوف والقلق ، ويطمئن إلى أنه مع الله ، فالله تعالى معه : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ، إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ (١)



• حسن البناء والأمل :

وقد كان إمامنا الشهيد حسن البناء من أقوى الناس أملاً فى النصر، ورجاء فى المستقبل ، رغم ما يعلمه ويحسه من ألغام العقبات التى توضع فى طريقه ، بين ذلك فى محاضراته ودروسه ، وسجله فى رسائله الشهيرة ، وكتبه فى مقالاته ، وخصوصاً فى جريدة (الإخوان المسلمون) اليومية . الذى كان يكتب فيها (حديث الجمعة) الأسبوعى ، ولا سيما فى سنة ١٩٤٨ م والمحنة تطل برأسها ، ويهئ (الطهارة المهرة) طبختها المسمومة .

أذكر من هذه المقالات : مقالاً بعنوان (ولو) يبشر فيه أن النصر قريب ، ولو اشتدت الغمة ، وأن الفجر قادم وإن طالت الظلمة ،

(١) الطلاق : ٢ ، ٣

ومقالاً بعنوان (أربعة أدلة) استدلل فيه بالنصوص والتاريخ والحساب على أن النصر آتٍ لا ريب فيه .

وفى رسائله أكد هذا المعنى تأكيداً بليغاً ، بأسلوبه (السهل الممتنع) كما فى رسالة (دعوتنا فى طور جديد) التى ركز فيها على (يقظة الروح) التى يريد بها حياة القلوب ، وصحوة الوجدان والمشاعر ، وطموح الأنفس وتوثبها لتحقيق الأهداف السامية والمثل العليا ، وهو ما فعله النبى ﷺ بنفوس أصحابه ، حيث غرس فيها هذه المشاعر الثلاثة : الإيمان والعزة والأمل ، الإيمان بعظمة الرسالة ، والاعتزاز باعتناقها ، والأمل فى تأييد الله إياها .

وفى رسالة (إلى أى شىء ندعو الناس) يقول البنا رحمه الله تحت عنوان (طريق طويلة) :

« أرجو أن تكون هذه الكلمات المتتاليات فى بيان دعوة الإخوان المسلمين قد كشفت للقراء الكرام عن غايتهم ، وأبانت لهم ولو إلى حد ما عن مناهجهم فى السير إلى هذه الغاية ، وقد تحدثت من قبل إلى كثير من إخواننا الغيورين على الإسلام ومجده حديثاً طويلاً هو أشبه بهذه الكلمات التى رآها القراء تحت عنوان : (إلى أى شىء ندعو الناس) .

ولقد أصغى إلى من حدثتهم إصغاء مشكوراً ، وكنا نتفهم القول تبعاً أولاً فأولاً ، حتى خرجنا من المحادثة مقتنعين تماماً بشرف

الغاية ونجاح الوسيلة . وكم كانت دهشتى عظيمة حين رأيت منهم شبه إجماع على أن هذه السبيل مع التسليم بنجاحها طويلة ، وأن التيارات الجارفة الهدامة فى البلد قوية ، مما يجعل اليأس يدب إلى القلوب الذى وجده أولئك المتحدثون من قبل ، وحتى لا يجد القراء الكرام فى أنفسهم هذا الشعور الذى وجده أولئك المتحدثون من قبل ، أحببت أن تكون هذه الكلمة مفعمة بالأمل ، فياضه باليقين فى النجاح إن شاء الله ، والله الأمر من قبل ومن بعد ؛ وسأحصر الموضوع فى نظرتين إيجابيتين :



● نظرة فلسفية اجتماعية :

يقول علماء الاجتماع إن حقائق اليوم هى أحلام الأمس ، وأحلام اليوم حقائق الغد . وتلك نظرة يؤيدها الواقع ويعززها الدليل والبرهان ، بل هى محور تقدم الإنسانية وتدرجها فى مدارج الكمال ، فمن ذا الذى كان يصدق أن يصل العلماء إلى ما وصلوا إليه من المكتشفات والمخترعات قبل حدوثها ببضع سنين ، بل إن أساطين العلم أنفسهم أنكروها لأول عهدهم بها ، حتى أثبتها الواقع وأيدها البرهان ، والمثل على ذلك كثيرة ، وهى من البداهة بحيث يكفيننا ذلك عن الإطالة بذكرها .



● نظرة تاريخية :

إن نهضات الأمم جميعها إنما بدأت على حال من الضعف يخيل للنّاظر إليها أن وصولها إلى ما تبتغى ضرب من المحال . ومع هذا الخيال فقد حدثنا التاريخ أن الصبر والثبات والحكمة والأناة وصلت بهذه النهضات الضعيفة النشأة ، القليلة الوسائل ، إلى ذروة ما يرجو القائمون بها من توفيق ونجاح . ومن ذا الذى كان يصدّق أن الجزيرة العربية ، وهى تلك الصحراء الجافة المجذبة تنبت النور والعرفان ، وتسيطر بنفوذ أبنائها الروحى والسياسى على أعظم دول العالم ؟ ومن ذا الذى كان يصدق أن هذه الشيعة الضئيلة المستترة من بنى علىّ والعباس تستطيع أن تقلب ذلك الملك القوى الواسع الأكتاف ما بين عشية وضحاها ، وهى ما كانت يوماً من الأيام إلا عرضة للقتل والتشريد والنفى والتهديد ؟ ومن ذا الذى كان يظن أن صلاح الدين الأيوبي يقف الأعوام الطوال ، فيرد ملوك أوروبا على أعقابهم مدحورين ، مع توافر عددهم وتظاهر جيوشهم ، حتى اجتمع عليه خمسة وعشرون ملكاً من ملوكهم الأكابر ؟

ذلك فى التاريخ القديم ، وفى التاريخ الحديث أروع المثل على ذلك ، فمن كان يظن أن الملك عبد العزيز آل سعود وقد نفيت أسرته وشرّد أهله وسلب ملكه يسترد هذا الملك بيضة وعشرين رجلاً ، ثم يكون بعد ذلك أملاً من آمال العالم الإسلامى فى إعادة مجده وإحياء وحدته ؟



● هل هناك طريق أخرى ؟ :

و ثم نظرتان سلبيتان تحدثان النتيجة بعينها ، وتوجهان قلب الغيور إلى العمل توجيهًا قويًا صحيحًا ، أولاهما : أن هذه الطريق مهما طال فليس هناك غيرها فى بناء النهضة بناء صحيحًا ، وقد أثبتت التجربة صحة هذه النظرية .

الواجب أولاً :

وثانيتها : أن العامل يعمل لأداء الواجب أولاً ، ثم للأجر الأخرى ثانياً ، ثم للإفادة ثالثاً ، وهو إن عمل فقد أدى الواجب ، وفاز بثواب الله ما فى ذلك من شك ، متى توفرت شروطه ؛ وبقيت الإفادة وأمرها إلى الله ، فقد تأتى فرصة لم تكن فى حسابه تجعل عمله يأتى بأبرك الثمرات ، على حين أنه إذا قعد عن العمل فقد لزمه إثم التقصير ، وضاع منه أجر الجهاد ، وحرم الإفادة قطعاً ، فأى الفريقين خير مقامًا وأحسن نديًا ؟ وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى صراحة ووضوح فى الآية الكريمة : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ، قَالُوا مَعذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿ (١) ﴾ (*) .

* * *

(١) الأعراف : ١٦٤ ، ١٦٥

(*) انظر : مجموع رسائل الإمام الشهيد حسن البنا ص (٥٢ - ٥٤) .

● المبشرات تدفع إلى المزيد من العمل :

والأمر الثانى الذى أريد التنبيه عليه هنا ، هو : أن المبشرات بمستقبل الإسلام ، التى ذكرناها ، لا ينبغي لنا أن نتكل عليها ، وننام على آذاننا ، ونخلد إلى الدعة والكسل ، وننتظر نصر الله ينزل علينا دون جهد نبذله ، وجهاد نمارسه ، وعمل دؤوب نقوم به فى جوانب حياتنا كلها ، نقوم ما اعوج منها ، ونصلح ما فسد ، ونبنى ما تهدم ، ونقوى ما ضعف ، ونكمل ما نقص ، بروح المجددين ، لا بعقلية المقلدين .

نستلهم تراثنا ، ونجعله مناراً يهديننا ، لا قيداً يثقل حركتنا ، ويعوق انطلاقنا .

نقتبس الحكمة من أى وعاء خرجت ، فلا نتقيد بمدرسة إسلامية واحدة ، ولا نلتزم مذهباً واحداً لا نخرج عنه ، بل نستفيد من كل المدارس والمذاهب والمشارب ، فى ضوء القواعد المتفق عليها ، رادّين التشابهات إلى المحكمات ، والظنيات إلى القطعيات ، والجزئيات إلى الكليات ، والفروع إلى الأصول .

بل نقتبس من مدارس الغرب ومناهجه وتجاربه كل ما ينفعنا ، ويمكننا أن نحوره ونطوره فى إطار معاييرنا وحاجاتنا وظروفنا ، حتى يلائمنا ، ويغدو جزءاً من منظومة حياتنا . ولا حرج علينا فى ذلك ، فالحكمة ضالة المؤمن أتى وجدها فهو أحق الناس بها .

لا بد لنا أن نخرج من سجن التخلف إلى باحة التقدم ، وأن ننمو نمواً حقيقياً ، اقتصادياً ، وبشرياً ، مادياً ومعنوياً ، وأن نجند كل طاقاتنا - التي أهدرنا أو عطلنا الكثير منها - لتنمية شاملة ، للحياة وللإنسان ، وأن نتخذ من الإسلام أكبر حافز لحشد هذه الطاقات وتقويتها ، ودفع عجلتها إلى الأمام بقوة قد تبلغ عشرة أضعاف الجهد العادى ، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى فى ميدان الجهاد :

﴿ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (١) .

لقد أرشد القرآن إلى أن نصر الله لا يكون ولا يتم إلا بالمؤمنين ، كما أنه لا يكون إلا للمؤمنين . كما قال تعالى يخاطب رسوله الكريم :

﴿ هُوَ الَّذِى أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

فلا نتوقع أن تنزل ملائكة السماء التى نزلت فى بدر أو فى الأحزاب أو فى حنين - على قوم فرغت قلوبهم من الإيمان ، أو خلت حياتهم من أخلاق الإيمان ، وأعمال المؤمنين ، فالله تعالى يقول فى بدر :

﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٣) .

إن الرسائل لا تنتصر وحدها ، إنما تنتصر بأهلها ، والحق لا

(٣) الأنفال : ١٢

(٢) الأنفال : ٦٢

(١) الأنفال : ٦٥

يعلو وحده ، إنما يعلو - وفق سنن الله - بدعاته ورجاله الذين
جمعوا بين العلم والعمل والإخلاص ، كما قال الشاعر :

وشيمة السيف : أن يزهى بجوهره وليس يعمل إلا فى يدى بطل !

إن المبشرات بانتصار الإسلام يجب أن تمنحنا وقوداً متجدداً ،
لمزيد من العطاء والعمل الذى تحتاج إليه أمتنا على كل صعيد . ولا تطمع
الأمة أن يمدها الله بنصره ، على ما بها من سىء الخصال ، وسىء
الفعال ، بل لا بد للأمة أن تغير ما بأنفسها حتى يغير الله ما بها .

لا تطمع الأمة أن تنتصر على اليهود ، وهى على حالها من
التخلف والتمزق ، والتعاضد ، والعجز والكسل ، والتسيب
والضياع .

يستحيل أن ينصر الله الكُسالى على العاملين ، والمختلفين على
المتحدين ، والفوضويين على المنظمين ، والمرتجلين على المخططين ،
والمتسيبين على المنضبطين ، والمفكرين فى مصالحهم على المفكرين فى
هموم أمتهم .

يستحيل أن تنتصر أمة تحارب أفضل عناصرها ، وتنكل بخيرة
أبنائها ، أعنى : العناصر الإسلامية ، التى يشهد لها من عايشوها
أنها أذكى عقولاً ، وأطهر قلوباً ، وأنظف أيدياً ، وأصدق عزائم ،
وأزكى أخلاقاً ، وأقوم أعمالاً ، وأكثر بذلاً وتضحية ، من سائر
الفئات .

إنهم بريئون من ارتكاب الموبقات ، بل الصغائر ، بل الشبهات ،
حتى السجارة لا يعرفونها ولا تعرفهم . إنهم رهبان الليل وفرسان
النهار ، يعرفهم الليل قانتين ، والنهار جاهدين ، ويعرفهم الناس
عاملين ، ويعرفهم ربهم مخلصين ، ولا نزكيهم على الله تعالى .

يستحيل أن تنتصر أمة أعظم ما يشغلها لعب الكرة ، وأهم ما يملأ
صحفها المقروءة ، وإذاعتها المسموعة والمرئية هو الغناء والرقص
والتمثيل ، وأشهر نجوم المجتمع فيها ليسوا العلماء ولا الأدباء ، ولا
المفكرين ، بل هم المطربون والمطربات ، والراقصون والراقصات ،
والممثلون والممثلات ، الأحياء منهم والأموات !

يستحيل أن تنتصر أمة متوسط عمل الفرد فيها نحو نصف ساعة
فى اليوم ، فى حين يعرق الناس فى العالم المتقدم طوال اليوم ،
ويكد ويكدح حتى يعود إلى بيته آخر النهار ، مكدوداً مهدوداً ،
يخلد بسرعة إلى الراحة ليواصل عمله مبكراً فى غده .

على القوى الموجهة للأمة ، المؤثرة فى سيرها ، أن تتعاون فيما
بينها للنهوض بها فى كل الميادين ، وتعويض ما فاتها على مر السنين ،
وسد الفجوة التى تباعد بينها وبين العالم المتقدم ، ومواجهة
التحديات بعزم وإيمان ، معتمدة على تخطيط دقيق ، واستشراف
مستقبلى بصير .

عليها أن تدرس الأمراض التى تشكو منها ، وتعرف أسبابها ،

وتعمل على علاجها ، وما خلق الله داء إلا خلق له دواء ، علمه من علمه ، وجهله من جهله .

عليها - فى الجانب الاقتصادى - أن تعمل على زيادة الانتاج ، وترشيد الاستهلاك ، وعدالة التوزيع ، وسلامة التداول .

وفى الجانب الاجتماعى : أن تقوى الإخاء بين الأفراد ، والتعاون بين الطبقات ، والتضامن بين الشعوب ، وأن تقرب المسافة بين الأغنياء والفقراء ، وأن ترعى الأمومة والطفولة والشيخوخة ، وتقيم الحياة الأسرية على أسس مكيّنة تظلها السكينة والمودة والرحمة .

وفى الجانب العقلى والثقافى : عليها أن تتحرر من آثار الغزو الفكرى ، والاستعمار الثقافى ، فى مجال التربية والتعليم ، ومجال الثقافة والإعلام ، فهذه هى التى تصنع عقول الناس ، وتنشئ اتجاهاتهم النفسية والفكرية .

وفى الجانب السياسى : عليها أن تقاوم الاستبداد والطغيان ، وترسخ دعائم الشورى ، وترعى حقوق الإنسان ، وتربى الناس على ضرورة التناصح وفرضية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتقويم العوج باليد لمن استطاع ، وباللسان لمن قدر عليه ، وبالقلب عند العجز ، وذلك أضعف الإيمان ، وأن تضع من الدساتير ما يفصل الحقوق والواجبات ، يميز بين السلطات ، ويقيم دولة المؤسسات ، ويسوى بين الناس فى الكرامة والحرية وتحمل المسؤولية . ولا يعطى امتيازاً لأحد على أحد إلا بالتقوى .

لقد بينا فى كتابنا (أين الخلل ؟) الطاقات المعطلة فى الأمة الإسلامية ، والطاقات المعطلة فى الحركة الإسلامية ، ودعونا إلى إصلاح الخلل فى الجانبين ، إن أردنا غداً أفضل ، ومستقبلاً أمثل .

لا بد أن يتعاون الدعاة والمصلحون لاستفراغ الجهود ، لتغيير الأمة من داخلها ، وتعبئة قواها الذاتية ، لتعوض ما فاتها ، وتلحق بركب العالم المتطور ، تأخذ أفضل ما عنده ، وتعطيه أفضل ما عندها . ولا ريب أن عندها الكثير الطيب المبارك ، الذى ورثته من رسالة الإسلام ، وحضارة الإسلام .

وإن الإسلام - الذى غير العرب قديماً ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور ، وجعلهم رعاة الأمم ، بعد أن كانوا رعاة الغنم ! - قادر على أن يغيرهم اليوم ، ويعيدهم - كما يحب الله لهم - خير أمة أخرجت للناس ، وأن يجعل منهم (صحابة جددًا) بعثهم الله تعالى ، ليخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان والمذاهب والفلسفات إلى عدل الإسلام ، وقيم الإسلام .

إن الصحابة رضى الله عنهم كانوا موقنين - كل الإيقان - بأنهم منصورون ، وأن جندهم هم الغالبون ، وأن هذا وعد الله ، ولن يخلف الله وعده ، ولكن هذا الإيمان أو اليقين لم يقعدهم عن العمل الجاهد ، وعن الجهاد المر ، وعن البذل الدائم ، حتى يتحقق وعد الله ، فإنما يتحقق فى الأرض وعد الله فى السماء بهم ،

لا بغيرهم ، فهم أدوات القدر فى تحقيق الوعد الإلهى . بل هم القدر الموعد ، كما قال بعض الصحابة رضى الله عنهم .

فقد روي أن بعض قادة الفرس سأل بعض قادة الصحابة فى إحدى معارك الفتح الإسلامى : من أنتم ؟ وما شأنكم ؟ فقال له : نحن قدر الله ، ابتلاكُم الله بنا ، وابتلانا بكم ، فلو كنتم فى صحابة لصعدنا إليكم ، أو لهبطتم إلينا !

بهذه الروح القوية المتوثبة الآملة يجب أن نجابه مشكلاتنا ، ونواجه معوقاتنا من الداخل ومن الخارج ، بادئين بالداخل ، فهو أس البلاء وجرثومة الداء . والله تعالى يوجهنا إلى ذلك حين خاطب المسلمين بعد انكسار غزوة أحد فيقول : ﴿ أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا ، قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ (١) .

فلنمض إذن على بركة الله عاملين مصممين ، فى صدق لا يعرف الزيف ، وثبات لا يعرف التردد ، وعزم لا يعرف الكلل ، ويقين لا يعرف الشك ، وأمل لا يعرف القنوط ، وجهاد لا يعرف القعود . ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢) .

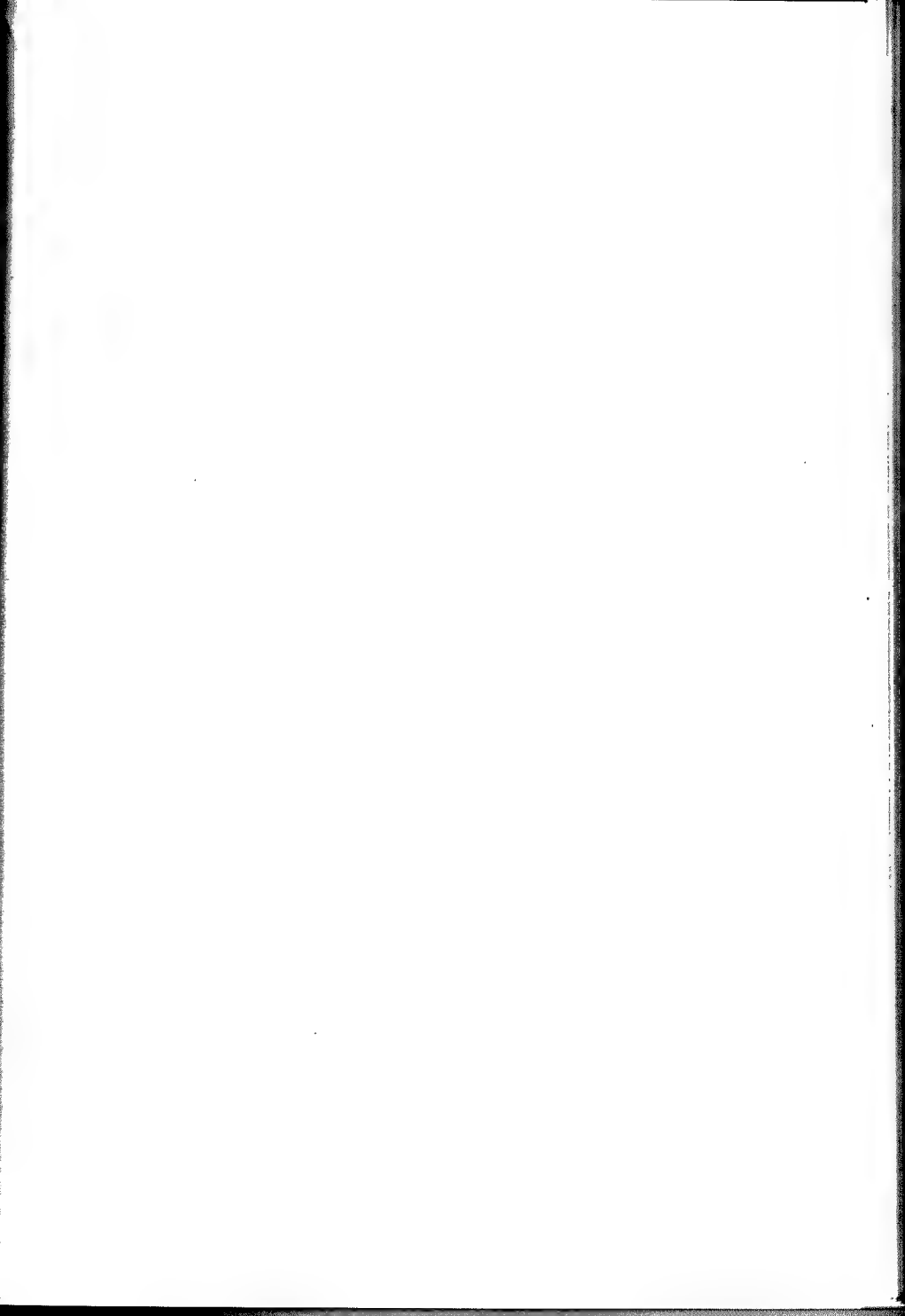
* * *

(٢) العنكبوت : ٦٩

(١) آل عمران : ١٦٥



أضواء
على أحاديث أُسَيِّ فهمها



حديث (بدأ الإسلام غريباً)

س : من الأحاديث المشتهرة على الألسنة والأقلام : حديث (بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً ، كما بدأ ، فطوبى للغرباء) .

فما مدى صحة هذا الحديث من ناحية ؟ وما المراد به ؟ وهل كلمة (غريباً) من الغربة أو من الغرابة ؟ فقد سمعت بعض المتحدثين في (الإذاعة) يؤكد أنها من (الغرابة والدهشة) وينفى أن تكون من (الغربة) .

وإذا كانت من الغربة كما هو الشائع والمتبادر ، فهل يعنى هذا ضعف الإسلام وأقول نجمه ؟

وهل هناك دلائل على انتصار الإسلام مرة أخرى ، كما انتصر في القرون الأولى للهجرة ؟ .

ج : الحديث صحيح الإسناد بلا نزاع من أهل هذا الشأن ، وهو مروى عن عدد من الصحابة رضى الله عنهم .

فقد رواه مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة ، والترمذى وابن ماجه عن ابن مسعود ، وابن ماجه عن أنس ، والطبرانى عن سلمان وسهل بن سعد ، وابن عباس ، رضى الله عنهم جميعاً ، كما في الجامع الصغير .

وقد رواه مسلم عن ابن عمر دون جملة (فطوبى للغرباء) .
وبهذا نعلم أن صحة الحديث لا كلام فيها ، وبقي الكلام فى
معناه .

ومن المؤسف أن كثيراً من الأحاديث المتعلقة بـ (آخر الزمان)
أو ما يسمى (أحاديث الفتن) و (أشراط الساعة) يفهمها بعض
الناس فهماً يوحى باليأس من كل عمل للإصلاح والتغيير .

ولا يُتصور أن يدعو الرسول الكريم ﷺ الأمة إلى اليأس والقنوط ،
وترك الفساد يستشرى فى الناس ، والمنكرات تنخر فى عظام المجتمع ،
دون أن يصنع الناس شيئاً ، يقوّم ما أعوجّ ، أو يصلح ما فسد .

وكيف يُتصور ذلك ، وهو - صلى الله عليه وسلم - يأمر بالعمل
لعمارة الأرض ، إلى أن تلفظ الحياة آخر أنفاسها ، كما يتضح ذلك
من الحديث الشريف : « إن قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة ،
فإن استطاع ألا تقوم - أى الساعة - حتى يفرسها ، فيلغرسها » (١) .

ومعنى هذا أنه لن يأكل من ثمر هذا الغرس ولا أحد من بعده ،
ما دامت الساعة قد قامت ، أو توشك أن تقوم .

فإذا كان هذا مطلوباً فى أمر الدنيا ، فأمر الدين أعظم وأجل ،
ولا بد من العمل من أجله إلى آخر رمق فى هذه الحياة .

(١) رواه أحمد فى مسنده ، والبخارى فى الأدب المفرد عن أنس ، وكذا
الطيالسى والبخارى ، وقال الهيثمى : رواه ثقات أثبات .

أما معنى كلمة (غريباً) فالتبادر أنها من (الغربية) لا من (الغرابة) بدليل آخر الحديث (فطوبى للغرباء) فالغرباء هنا جمع (غريب) والمراد به المتصف بالغربة لا الغرابة .

وإنما كانت غربتهم من غربة الإسلام الذى يؤمنون به ويدعون إليه ، وهذا هو المعنى المفهوم من كلمة (غريب) فى أكثر من حديث مثل (كن فى الدنيا كأنك غريب) رواه البخارى .

كما جاءت جملة أحاديث وروايات فيها زيادات فى هذا الحديث ، فى وصف (الغرباء) مما يؤكد أن المقصود هو الغربة لا الغرابة .

هذا إلى أن الواقع اليوم وفى عصور خلت ، يدل على غربة الإسلام فى دياره ذاتها ، وبين أهله أنفسهم . حتى إن من يدعو إلى الإسلام الحق يعانى الاضطهاد والتنكيل ، أو الشنق أو الاغتيال !

ولكن هل هذه الغربة عامة وشاملة ودائمة ، أو هى غربة جزئية ومؤقتة ؟ فقد تكون فى بلد دون آخر ، وفى زمن دون آخر . وبين قوم دون غيرهم ، كما ذكر ذلك المحقق ابن القيم رضى الله عنه .

والذى أراه : أن الحديث يتحدث عن دورات أو (مَوَجات) تأتي وتذهب ، وأن الإسلام يعرض له ما يعرض لكل الدعوات والرسالات من القوة والضعف ، والامتداد والانكماش ، والازدهار والذبول ، وفق سنن الله التى لا تتبدل ، فهو كغيره خاضع لهذه السنن الإلهية، التى لا تعامل الناس بوجهين ، ولا تكيل لهم

بكيلين ، فما يجرى على الأديان والمذاهب يجرى على الإسلام ،
وما يجرى على سائر الأمم يجرى على أمة الإسلام .

فالحديث ينبئ عن ضعف الإسلام في فترة من الفترات ، ودورة
من الدورات ، ولكنه سرعان ما ينهض من عثرته ، ويقوم من
كبوته ، ويخرج عن غربته ، كما فعل حين بدأ .

فقد بدأ غريباً ، ولكنه لم يستمر غريباً ، لقد كان ضعيفاً ثم قوى
مستخفياً ثم ظهر ، محدوداً ثم انتشر ، مضطهداً ثم انتصر .

وسيعود غريباً كما بدأ ، ضعيفاً ليقوى ، ثم يقوى ، مطارداً
ليظهر ثم يظهر على الدين كله ، ملاحقاً مضطهداً لينتشر وينتشر ،
ثم ينتصر ويتنصر .

فلا دلالة في الحديث على اليأس من المستقبل إن أحسنا فهمه .

ومما يدل على أن الحديث لا يعنى الاستسلام أو اليأس ،
ولا يدعو إليه بحال : ما جاء في بعض الروايات من وصف
لهؤلاء (الغرباء) من أنهم الذين يصلحون ما أفسد الناس من
السنة ، ويحيون ما أماته الناس منها .

فهم قوم إيجابيون بناؤون مصلحون ، وليسوا من السلبين
أو الانعزالين أو الاتكاليين ، الذين يدعون الأقدار تجري في أعنتها ،
ولا يحركون ساكناً ، أو ينبهون غافلاً .

ومن المفيد أن أنقل هنا ما كتبه الإمام ابن القيم حول هذا الحديث ،

عند شرح كلام شيخه الهروى فى باب (الغربة) من (منازل السائرين) إلى مقامات : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، فقال رحمه الله فى (مدارج السالكين) :

قال شيخ الإسلام (باب الغربة) قال الله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ (١) ، قال ابن القيم معلقًا وشارحًا :

(استشهاده بهذه الآية فى هذا الباب : يدل على رسوخه فى العلم والمعرفة ، وفهم القرآن ، فإن الغرباء فى العالم : هم أهل هذه الصفة المذكورة فى الآية ، وهم الذين أشار إليهم النبى ﷺ فى قوله : « بدأ الإسلام غريبًا ، وسيعود غريبًا كما بدأ ، فطوبى للغرباء » . قيل : ومن الغرباء يا رسول الله ؟ ؛ قال : « الذين يصلحون إذا فسد الناس » (٢) . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن زهير عن عمرو بن أبى عمرو - مولى

(١) هود : ١١٦

(٢) أوردته الهيثمى فى (مجمع الزوائد) من حديث سهل بن سعد الساعدى ، بنحوه ، وقال : رواه الطبرانى فى الثلاثة رجاله رجال الصحيح ، غير بكر بن سليم ، وهو ثقة : (٢٧٨ / ٧) ، ومن حديث جابر ، وقال : رواه الطبرانى فى « الأوسط » ، وفيه عبد الله بن صالح ، كاتب الليث ، وهو ضعيف وقد وثق : (٢٧٨ / ٧) .

المطلب بن حنطب - عن المطلب بن حنطب عن النبي ﷺ قال :
« طوبى للغرباء » . قالوا : يا رسول الله ، ومن الغرباء ؟ قال :
« الذين يزدون إذا نقص الناس » (١) .

فإن كان هذا الحديث بهذا اللفظ محفوظاً - لم ينقلب على
الراوى لفظه وهو : « الذين ينقصون إذا زاد الناس » - فمعناه :
الذين يزدون خيراً وإيماناً وتقى ، إذا نقص الناس من ذلك . والله
أعلم .

وفى حديث الأعمش عن أبى الأحوص عن عبد الله بن مسعود
قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الإسلام بدأ غريباً ، وسيعود
غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء » ، قيل : ومن الغرباء يا رسول الله ؟
قال : « التُّرَاع من القبائل » (٢) .

(١) بحث عن الحديث فى مظانه فى المسند فلم أجده ، وكذلك لم أجده
فى (مجمع الزوائد) للهيثمى ، ولا أشار إليه فى المعجم المفهرس للكتب
التسعة . بل لم أجد المطلب بن حنطب ضمن الصحابة الرواة فى المسند ،
وفقاً لفهرس الشيخ الألبانى . فلما أن يكون ساقطاً من المطبوع كما تبين
ذلك مع عقبه بن مرة الجهنى ، فإن له ثلاثة أحاديث فى المسند ، ليس فى
المطبوع إلا واحد منها ، أو يكون أحمد رواه خارج المسند . والله أعلم .

(٢) الحديث فى الدارمى برقم (٢٧٥٧) وابن ماجه برقم (٣٩٨٨) ،
والترمذى برقم (٢٦٣١) بدون السؤال وقال : حسن غريب صحيح ،
والبيهقى فى الزهد برقم (٢٠٨) ، والبغوى فى شرح السنة ، وصححه :
(١١٨/١) ، حديث (٦٤) - نشر المكتب الإسلامى .

وفى حديث عبد الله بن عمرو قال : قال النبي ﷺ ذات يوم .
ونحن عنده - « طوبى للغرباء » . قيل : ومن الغرباء يا رسول الله ؟
قال : « ناس صالحون قليل فى ناس كثير ، من يعصيهم أكثر ممن
يطيعهم » (١) .

وقال أحمد : حدثنا الهيثم بن جبل حدثنا محمد بن مسلم حدثنا
عثمان بن عبد الله عن سليمان بن هرم عن عبد الله بن عمرو عن
النبي ﷺ قال : « إن أحب شئ إلى الله الغرباء » قيل : ومن
الغرباء ؟ قال : « الفرارون بدينهم . يجتمعون إلى عيسى بن مريم
عليه السلام يوم القيامة » (٢) .

وفى حديث آخر « بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ ،
فطوبى للغرباء » ، قيل : ومن الغرباء يا رسول الله ؟ قال :
« الذين يحيون سنتى ، ويعلمونها الناس » (٣) .

(١) الحديث فى المسند وصححه الشيخ شاکر ، كذا أورده الهيثمى :
(٢٧٨/٧) ، وقال : رواه أحمد والطبرانى فى « الأوسط » وفيه ابن لهيعة ،
وفيه ضعف ، وذكره فى موضع آخر جزءاً من حديث وعزاه إلى الطبرانى فى
الكبير ، وقال : له فيه أسانيد ، ورجال أحدهما رجال الصحيح :
(٢٥٦/١٠) .

(٢) رواه أحمد فى (الزهد) ص ٧٧ ، وليس فى (المسند) كما رواه
البيهقى فى الزهد برقم (٢٠٦) .

(٣) رواه البيهقى فى الزهد من حديث كثير بن عبد الله بن عوف ، عن
أبيه ، عن جده ، وهو ضعيف جداً رقم (٢٠٧) كما رواه الترمذى بهذا =

وقال نافع عن مالك (دخل عمر بن الخطاب المسجد ، فوجد معاذ بن جبل جالساً إلى بيت النبي ﷺ ، وهو يبكي ، فقال له عمر : ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن ؟ هلك أخوك : ؟ قال : لا ، ولكن حديثاً حدثنيه جيبى ﷺ ، وأنا فى المسجد ، فقال : ما هو ؟ قال : إن الله يحب الأخفياء الأتقياء الأبرياء . الذين إذا غابوا لم يفتقدوا . وإذا حضروا لم يعرفوا . قلوبهم مصاييح الهدى . يخرجون من كل فتنة عمياء مظلمة) (١) .

فهؤلاء هم الغرباء المدحون المغبوطون . ولقنتهم فى الناس جداً : سموا (غرباء) فإن أكثر الناس على غير هذه الصفات ، فأهل الإسلام فى الناس غرباء ، والمؤمنون فى أهل الإسلام غرباء ، وأهل العلم فى المؤمنين غرباء ، وأهل السنة - الذين يميزونها من الأهواء والبدع - فيهم غرباء ، والداعون إليها الصابرون على أذى

= السند برقم (٢٦٣٢) ، وقال : حسن ، وفى بعض النسخ : حسن صحيح !! ولفظه : (فطوبى للغرباء ، الذين يصلحون ما أفسد الناس بعدى من ستنى) . وهذا مما أخذه عليه النقاد ، ولعله حسنه أو صحَّحه لكثرة شواهدة .

(١) الحديث بنحو هذا اللفظ عند ابن ماجه (٣٩٨٦) ، وضعفه فى الزوائد بابن لهيعة ورواه الحاكم بسند آخر ، وقال : صحيح ولا علة له عن زيد بن أسلم : (٤/١) ، ووافقه الذهبى وانظر : كتابنا المنتقى من الترغيب والترهيب حديث رقم (١٩) ورواه البيهقى فى الزهد بسند آخر ، برقم (١٩٧) ، عن ابن عمر .

المخالفين : هم أشد هؤلاء غربة . ولكن هؤلاء هم أهل الله حقًا ، فلا غربة عليهم ، وإنما غربتهم بين الأكثرين ، الذين قال الله عزَّ وجلَّ فيهم : ﴿ وَإِنْ تَطَعُ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (١) فأولئك هم الغرباء من الله ورسوله ودينه ، وغربتهم هي الغربة الموحشة ، وإن كانوا هم المعروفين المشار إليهم . كما قيل :

فليس غريبًا من تناءت دياره ولكن من تنأينَ عنه غريب !

ولما خرج موسى عليه السلام هاربًا من قوم فرعون انتهى إلى مدين ، على الحال التي ذكر الله ، وهو وحيد غريب خائف جائع ، فقال : (يا رب وحيد مريض غريب . فقيل له : يا موسى ؛ الوحيد : من ليس له مثلى أنيس ، والمريض : من ليس له مثلى طيب . والغريب : من ليس بيني وبينه معاملة) .

فالغربة ثلاثة أنواع : غربة أهل الله وأهل سُنَّة رسول الله بين هذا الخلق . وهي الغربة التي مدح رسول الله ﷺ أهلها . وأخبر عن الدين الذي جاء به : أنه (بدأ غريبًا) ، وأنه (سيعود غريبًا كما بدأ) ، وأن (أهلُه يصيرون غرباء) .

وهذه الغربة قد تكون في مكان دون مكان ، ووقت دون وقت ، وبين قوم دون قوم ، ولكن أهل هذه (الغربة) هم أهل الله حقًا .

(١) الأنعام : ١١٦

فإنهم لم يأووا إلى غير الله ، ولم ينتسبوا إلى غير رسوله ﷺ ،
ولم يدعوا إلى غير ما جاء به ، وهم الذين فارقوا الناس أحوج
ما كانوا إليهم . فإذا انطلق الناس يوم القيامة مع آلهتهم بقوا فى
مكانهم . فيقال لهم : (ألا تنطلقون حيث انطلق الناس ؟ فيقولون :
فارقنا الناس ، ونحن أحوج إليهم منا اليوم ، وإننا نتظر ربنا الذي
كنا نعبده) .

فهذه (الغربة) لا وحشة على صاحبها . بل هو آنس ما يكون
إذا استوحش الناس . وأشد ما تكون وحشته إذا استأنسوا . فوليه
الله ورسوله والذين آمنوا ، وإن عاداه أكثر الناس وجفوه .

وفى حديث القاسم عن أبى أمامة عن النبى ﷺ قال - عن الله
تعالى - : (إن أغبط أوليائى عندى : المؤمن ، خفيف الحاذ ، ذو
حظ من صلاة . أحسن عبادة ربه ، وكان رزقه كفافاً ، وكان مع
ذلك غامضاً فى الناس ، لا يشار إليه بالأصابع ، وصبر على ذلك
حتى لقي الله . ثم حلت منيته ^(١) ، وقل ترائه ، وقل بواكيه) ^(٢) .

(١) نص الترمذى : ثم نفض بيده فقال : عجلت منيته .. إلخ .. والمراد
بقوله : أغبط الناس : أحق من يتمنى الناس مثل حاله . وخفيف الحاذ ،
أى : خفيف الظهر من العيال . كفافاً ، أى : بقدر الحاجة ، لا يشار إليه
بالأصابع ، أى : أنه مغمور غير مشهور ، ومعنى (عجلت منيته) : أنه
لم يعمر طويلاً ، فقد يصاب أو يستشهد فى سبيل الله . قل ترائه : لم يترك
مألاً كثيراً . قل بواكيه : ربما لموته فى الغربة ، فلا أحد يعرفه يبكى عليه .
(٢) رواه الترمذى فى الزهد (٢٣٤٨) من طريق عبيد الله بن زحر عن على =

ومن هؤلاء الغرباء : من ذكرهم أنس في حديثه عن النبي صلى الله عليه وسلم : (رب أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له . لو أقسم على الله لأبره) (١) .

وفي حديث أبي إدريس الخولاني عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال : « ألا أخبركم عن ملوك أهل الجنة ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ؛ قال : كل ضعيف أغبر ، ذى طمرين لا يؤبه له ، لو أقسم على الله لأبره » (٢) .

وقال الحسن : المؤمن فى الدنيا كالغريب ، لا يجزع من ذلها ،

= ابن زيد عن القاسم ، وهو إسناد ضعيف ، وإن حسنه الترمذى ، كما رواه ابن ماجه بنحوه بإسناد آخر (٤١١٧) ، وفيه راويان ضعيفان كما فى الزوائد للبوصيرى .

(١) أورده الهيثمى بنحوه فى « المجمع » : (٢٦٤/١٠) ، وقال : رواه الطبرانى فى « الأوسط » ، وفيه عبد الله بن موسى التميمى وقد وثق ، وبقية رجاله رجال الصحيح ، عن جابر بن هرم ، وقد وثقه ابن حبان على ضعفه ، وأورد نحوه من حديث ابن مسعود ، وإسناده أجود ، وفي صحيح مسلم من حديث أبى هريرة : « رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره » الحديث رقم (٢٦٢٢) .

(٢) رواه ابن ماجه (٤١١٥) ، وفيه سويد بن عبد العزيز ، ضعفوه ، وحسنه بعضهم لشواهده ، انظر : فيض القدير : حديث (٢٨٥٢) .

ولا ينافس في عزها . للناس حال وله حال . الناس منه فى راحة ،
وهو من نفسه فى تعب .

ومن صفات هؤلاء الغرباء - الذين غبطهم النبى ﷺ : التمسك
بالسنة ، إذا رغب عنها الناس . وترك ما أحدثوه ، وإن كان هو
المعروف عندهم ، وتجريد التوحيد ، وإن أنكر ذلك أكثر الناس .
وترك الانتساب إلى أحد غير الله ورسوله ، لا شيخ ، ولا طريقة ،
ولا مذهب ، ولا طائفة ، بل هؤلاء الغرباء متسبون إلى الله
بالعبودية له وحده ، وإلى رسوله بالاتباع لما جاء به وحده ، وهؤلاء
هم القابضون على الجمر حقاً ، وأكثر الناس - بل كلهم - لائم
لهم . فلغربتهم بين هذا الخلق : يعدونهم أهل شذوذ وبدعة ،
ومفارقة للسواد الأعظم !

ومعنى قول النبى ﷺ : « هم النزاع من القبائل » : أن الله
سبحانه بعث رسوله ، وأهل الأرض على أديان مختلفة ، فهم
بين عباد أوثان ونيران ، وعباد صور وصلبان ، ويهود وصابئة
وفلاسفة ، وكان الإسلام فى أول ظهوره غريباً . وكان من أسلم
منهم ، واستجاب لله ولرسوله : غريباً فى حيه وقبيلته ، وأهله
وعشيرته .

فكان المستجيبون لدعوة الإسلام نزاعاً من القبائل ، بل أحاداً
منهم . تغربوا عن قبائلهم وعشائريهم ، ودخلوا فى الإسلام ،

فكانوا هم الغرباء حقًا حتى ظهر الإسلام ، وانتشرت دعوته ،
ودخل الناس فيه أفواجًا ، فزالت تلك الغربة عنهم ، ثم أخذ فى
الاغتراب والترحل ، حتى عاد غريبًا كما بدأ ، بل الإسلام الحق -
الذى كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه - هو اليوم أشد غربة منه
فى أول ظهوره ، وإن كانت أعلامه ورسومه الظاهرة مشهورة
معروفة . فالإسلام الحقيقى غريب جدًا . وأهله غرباء أشد الغربة
بين الناس .

وكيف لا تكون فرقة واحدة قليلة جدًا ، غريبة بين اثنتين وسبعين
فرقة . ذات أتباع ورياسات ، ومناصب وولايات . ولا يقوم لها
سوق إلا بمخالفة ما جاء به الرسول ؟ فإن نفس ما جاء به يضاد
أهواءهم ولذاتهم ، وما هم عليه من الشبهات والبدع التى هى
منتهى فضيلتهم وعلمهم ، والشهوات التى هى غايات مقاصدهم
وإرادتهم ؟

فكيف لا يكون المؤمن السائر إلى الله على طريق المتابعة غريبًا بين
هؤلاء الذين قد اتبعوا أهواءهم ، وأطاعوا شيخهم ، وأعجب كل
منهم برأيه ؟ كما قال النبى ﷺ : « مروا بالمعروف ، وانهاؤا عن
المنكر ، حتى إذا رأيتم شحًا مطاعًا ، وهوى متبعًا ، ودنيا مؤثرة ،
وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، ورأيت أمرًا لا يد لك به ، فعليك
بخاصة نفسك ، وإياك وعوامهم . فإن وراءكم أيامًا صبر الصابر

فيهم كالقابض على الجمر » . (ولهذا جعل للمسلم الصادق في هذا الوقت - إذا تمسك بدينه - أجر خمسين من الصحابة (١) ، ففى سنن أبى داود والترمذى - من حديث أبى ثعلبة الحشنى - قال : (سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ (٢) ، فقال : بل ائتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ، ودع عنك العوام ، فإن من وراءكم أيام الصبر ، الصبر فيهن مثل قبض على الجمر ، للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله . قلت : يا رسول الله ، أجر خمسين منهم ؟ قال : « أجر خمسين منكم » (٣) وهذا الأجر إنما هو لغرفته بين الناس ، والتمسك بالسنة بين ظلمات أهوائهم وآرائهم .

(١) وهذا يقوى قول الحافظ ابن عبد البر فى أن تفضيل قرن الصحابة تفضيل للمجموع لا لكل فرد ، باستثناء السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، وأهل بدر وأهل أحد ، وأهل بيعة الرضوان ، ومن كان له فضيلة خاصة من الصحابة ، وهذا يفتح باب الأمل للأجيال اللاحقة ، ويؤيده حديث الترمذى : « مثل أمتى كمثل المطر ، لا يدرى أوله خير أم آخره » .

(٢) المائدة : ١٠٥

(٣) رواه أبو داود فى الملاحم برقم (٤٣٤١) ، والترمذى فى التفسير برقم

(٣٠٦٠) ، وقال حسن غريب ، وابن ماجه فى الفتن (٤٠١٤) .

فإذا أراد المؤمن ، الذى قد رزقه الله بصيرة فى دينه ، وفقهًا فى سنة رسوله ، وفهمًا فى كتابه ، وأراه ما الناس فيه : من الأهواء والبدع والضلالات ، وتنكبهم عن الصراط المستقيم ، الذى كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ، فإذا أراد أن يسلك هذا الصراط : فليوطن نفسه على قدح الجهال ، وأهل البدع فيه ، وطعنهم عليه ، وإزرائهم به ، وتنفير الناس عنه ، وتحذيرهم منه (١) ، كما كان سلفهم من الكفار يفعلون مع متبوعه وإمامه ﷺ ، فأما إن دعاهم إلى ذلك ، وقدح فيما هم عليه ، فهناك تقوم قيامتهم ، ويبغون له الغوائل ، وينصبون له الحبال ، ويُجلبون عليه بخيل كبيرهم ورَجَله . فهو غريب فى دينه لفساد أديانهم ، غريب فى تمسكه بالسُّنة ، لتمسكهم بالبدع ، غريب فى اعتقاده ، لفساد عقائدهم . غريب فى صلاته ، لسوء صلاتهم . غريب فى طريقه ، لضلال وفساد طرقهم . غريب فى نسبته ، لمخالفة نسبهم . غريب فى معاشرته لهم ، لأنه يعاشرهم على ما لا تهوى أنفسهم .

وبالجملة : فهو غريب فى أمور دنياه وآخرته ، لا يجد من العامة

(١) فى عصرنا دخل عنصر يزيد من غربة المؤمنين الداعين إلى الله ، وإلى كتابه وسنة نبيه ، وهو اضطهاد السلطات الحاكمة لهم ، ومطاردتها لهم ، واستخدام كل ما تملك من قوة لإيذائهم والتضييق عليهم ، ثم كيد القوى المعادية للإسلام ، وما أكثرها عددًا ، وأقواها عدة ، وأشدّها مكرًا !

مساعدًا ولا معينًا . فهو عالم بين جهال ، صاحب سنة بين أهل بدع ، داع إلى الله ورسوله بين دعاة إلى الأهواء والبدع . أمر بالمعروف ، ناه عن المنكر ، بين قوم المعروف لديهم منكر والمنكر معروف (١) أه .



● بشارات من القرآن بظهور الإسلام من جديد :

أما ما سأل عنه الأخ من وجود بشارات ودلائل على انتصار الإسلام في المستقبل ، فهي كثيرة ومتوافرة ، في كل من القرآن والسنة ، وإن كان كثير من الخطباء والوعاظ يغفلونها ، ولا يبرزون إلا ما يوحى ظاهره بالقنوط ، وقد ذكرنا جملاً من هذه البشارات من قبل ، فليرجع إليها .

ومن هذه البشارات :

١ - ظهور الصحوة الإسلامية ، التي أعادت للأمة الثقة بالإسلام ، والرجاء في غده ، وقد أقلقت أعداء الإسلام في الداخل والخارج ، وهي جديرة أن تقود الأمة إلى مواطن النصر ، إذا قدر الله لها أن يتولى زمامها المرشدون الراشدون ، من أولى

(١) مدارج السالكين شرح منازل السائرين لابن القيم :

(ج١/١٩٤ - ٢٠٠) ط السنة المحمدية .

الأيدى والأبصار ، الذين آتاهم الله الفقه فى سنن الله ، والفقه فى دين الله ، والحكمة فى النظر ، والحكمة فى العمل : ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (١) .

٢ - انهيار الأنظمة الشمولية ، وخصوصاً الشيوعية التى زعمت يوماً أنها ستغزو العالم ، وترث الأديان ، وتهزم الفلسفات ، والتى لقيت أولى هزائمها على أيدى إخواننا المجاهدين فى أفغانستان ، والذين انتصروا بأسلحتهم العتيقة على أعتى دولة ملحدة فى التاريخ .

لقد سقطت قلاع الشيوعية واحدة بعد الأخرى ، بدءاً بالاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية ، وإنهاءً بالبنيا .



(١) البقرة : ٢٦٩

حديث (لا يأتى عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه)

س : كنت أقرأ فى كتاب دينى ، فصادفنى فيه حديث اقشعر له جلدى ، ولم أكد أصدقه لأول وهلة ، فالحديث يقول فيه النبى ﷺ : « لا يأتى عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه » .

ولما سألت عنه بعض العلماء الذين لهم معرفة بالحديث أخبرنى بأن الحديث صحيح ، وأنه من رواية البخارى ، فأسقط فى يدى ، فماذا عسى أن أقول إذا كان الحديث فى صحيح البخارى ، أصح كتاب فى الإسلام بعد كتاب الله تعالى ؟

فهل معنى هذا الحديث أننا فى انحدار دائم ، وتدهور مطرد ، وأننا نتقل من حسن إلى سيئ ، ومن سيئ إلى أسوأ ، ومن أسوأ إلى ما هو أشد سوءاً ، حتى تقوم الساعة ؟

هذا مع أن هناك كثيراً من الناس يعتقدون عكس هذا تماماً : أن الحياة تترقى ، والدنيا تتطور ، والإنسان يزداد كل يوم علماً بالعالم من حوله ، ومن تحته ومن فوقه حتى وصل إلى القمر فى السماء ! ثم إن الحديث يلقي فى نفوسنا أن لا أمل فى شيء ، ولا نجاة لنا مما نحن فيه ، ما دمنا ننحدر إلى الهاوية يوماً بعد يوم ، فهذا قدر كتبه الله علينا ، وسنة صارمة لا زمة دائمة لا بد أن نخضع لها .

حتى تقوم الساعة على لكع ابن لكع أى كافر ابن كافر ، كما سمعنا من السادة العلماء .

ولقد علمت من بعض الأخوة المتبعين لما تكتبون بأن لكم فى هذا الحديث تأويلاً أودعتموه بعض كتبكم ، أرجو أن تدلنى عليه ، عسى أن يزيح ما بنفسى من قلق ، وما بقلبى من حيرة وبلبله .

جزاكم الله عن العلم والإسلام خيراً الجزاء .

م . ك . ع

الرباط - المغرب

* ج : الحديث المذكور رواه الإمام البخارى فى جامعه الصحيح ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، فهو حديث صحيح من ناحية سنده ، ولكن الآفة تأتى هنا من فهمه فهماً يخالف سنن الله ، أو حقائق العلم ، أو ثوابت الواقع ، ولا يمكن أن يأتى الدين بما يخالف ذلك ، لأن الدين حق ، وهذه الأشياء المذكورة حق ، والحق لا يتناقض ، فإما أن يكون لهذه الأشياء تفسير غير ما يبدو لنا ، أو يكون للنص الدينى تأويل غير الظاهر المتبادر منه .

وأحاديث (الفتن) وما يتعلق بما يسمى (آخر الزمان) أو (أشراط الساعة) يكثر فيها سوء الفهم ، ولذا ينبغى التأمل الطويل فى معانيها ، حتى لا يتخذها الناس وسيلة لقتل كل بذرة للأمل ، ووأد كل محاولة للإصلاح والتغيير .

والحديث المذكور نموذج لهذا النوع من الأحاديث . وقد تعرضت
ليبان معناه ، ورد الأفهام الخاطئة التي أحاطت به ، وذلك فى كتابى
(كيف نتعامل مع السنة النبوية) وكان مما قلته فى ذلك :

* *

● هل كل زمن شر مما قبله ؟

روى البخارى بسنده إلى الزبير بن عدى ، قال : أتينا أنس بن
مالك فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج ، فقال : إصبروا ، فإنه لا
يأتى عليكم زمان إلا الذى بعده شر منه ، حتى تلقوا ربكم ،
سمعتة من نبيكم ﷺ .

يتخذ بعض الناس من هذا الحديث تكأة للقعود عن العمل ،
ومحاولة الإصلاح والإنقاذ ، مدعيًا أن الحديث يدل على أن الأمور
فى تدهور دائم ، وسقوط مستمر وهوى متتابع ، من درك إلى درك
أسفل منه ، فهى لا تنتقل من سيئ إلا إلى أسوأ ، ولا من أسوأ
إلا إلى الأسوأ منه . حتى تقوم الساعة على شرار الناس ويلقى الناس
ربهم .

وآخرون توقفوا فى قبول الحديث ، وربما تعجل بعضهم فردّه ،
لأنه فى ظنه يدعو :

أولاً : إلى اليأس والقنوط .

وثانيًا : إلى السلبية فى مواجهة الطغاة من الحكام المنحرفين .

وثالثاً : يعارض فكرة (التطور) التى قام عليها نظام الكون والحياة .

ورابعاً : ينافى الواقع التاريخى للمسلمين .

وخامساً : يعارض الأحاديث التى جاءت فى ظهور خليفة يملأ الأرض عدلاً (وهو الذى عرف باسم المهدي) وفى نزول عيسى ابن مريم ، وإقامته لدولة الإسلام ، وإعلاء كلمته فى الأرض كلها .

ومن الحق علينا أن نقول : إن السابقين من علمائنا قد وقفوا عند هذا الحديث مستشكلين (الإطلاق) فيه . يعنون بالإطلاق ما فهم من الحديث : أن كل زمن شر من الذى قبله ، مع أن بعض الأزمنة تكون فى الشر دون التى قبلها ، ولو لم يكن فى ذلك إلا زمن عمر ابن عبد العزيز ، وهو بعد زمن الحجاج - الذى عمت الشكوى منه - بيسير ، وقد اشتهر الخير الذى كان فى زمن عمر بن عبد العزيز ، بل لو قيل : إن الشر اضمحل فى زمانه ، لما كان بعيداً ، فضلاً عن أن يكون شرّاً من الذى قبله .

وقد أجابوا عن هذا بعدة أجوبة :

أ - فالإمام الحسن البصرى حمل الحديث على الأكثر الأغلب ، فقد سئل عن عمر بن عبد العزيز بعد الحجاج ، فقال : لا بد للناس من تنفيس !

ب - وجاء عن ابن مسعود رضى الله عنه من قوله : (لا يأتى

عليكم زمان إلا وهو أشرف مما كان قبله ، أما إنى لا أعنى أميراً خيراً من أمير ، ولا عامّاً خيراً من عام ، ولكن علماؤكم وفقهاؤكم يذهبون ، ثم لا تجدون منهم خلقاً ، ويحى قوم يفتون برأيهم) وفى لفظ عنه : (فيثلمون الإسلام ويهدمون) ورجح الحافظ فى (الفتح) تفسير ابن مسعود لمعنى الخيرية والشرية هنا ، قائلاً : وهو أولى بالاتباع .

ولكنه فى الواقع لا ينفى الاستشكال من أساسه ، فالنصوص تدل على أن فى الغيب أدواراً للإسلام ترتفع فيها رأيته وتعلو كلمته ، ولو لم يكن إلا زمن المهدي والمسيح فى آخر الزمان لكفى .

والتاريخ يثبت أنه قد جاءت فترات ركود وجمود فى العالم أعقبتها أزمنة حركة وتجديد ، ويكفى أن نذكر مثلاً من ظهر فى القرن الثامن من العلماء والمجددين - بعد سقوط الخلافة الإسلامية فى بغداد ، وتدهور الأوضاع فى القرن السابع ، مثل شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، وسائر تلاميذه فى الشام ، والشاطبى فى الأندلس ، وابن خلدون فى المغرب ، وغيرهم ممن ترجم لهم ابن حجر فى كتابه (الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة) .

وفى العصور التى تلت ذلك نجد مثل ابن حجر ، والسيوطى فى مصر ، وابن الوزير فى اليمن ، والدهلوى فى الهند ، والشوكانى والصنعانى فى اليمن ، وابن عبد الوهاب فى نجد ، وغيرهم من العلماء الأجلاء المجتهدين والأئمة المجددين .

وهذا ما جعل الإمام ابن حبان فى صحيحه يرى أن حديث أنس ليس على عمومه ، مستدلاً بالأحاديث الواردة فى المهدى ، وأنه يملأ الأرض عدلاً ، بعد أن ملئت جوراً (١) .

ج - ولهذا أرى أن أرجح التفسيرات لهذا الحديث ما ذكره الحافظ فى (الفتح) بقوله : (ويحتمل أن يكون المراد بالأزمة المذكورة أزمة الصحابة ، بناء على أنهم هم المخاطبون بذلك ، فيختص بهم ، فأما من بعدهم فلم يقصد فى الخبر المذكور ، لكن الصحابى فهم التعميم - فلذلك أجاب من شكأ إليه الحجاج بذلك وأمرهم بالصبر ، وهم - أو جلهم - من التابعين) (٢) أ . هـ .

وعلى هذا التفسير يحمل كلام ابن مسعود أيضاً : فهو خاص بأزمة من كان يخاطبهم من الصحابة والتابعين ، وقد توفى فى زمن عثمان رضى الله عنهما .

وأما زعم من زعم أن الحديث يتضمن دعوة إلى السكوت على الظلم والصبر على التسلط والجبروت ، والرضا بالمنكر والفساد ، ويؤيد السلبية فى مواجهة الطغاة المتجبرين فى الأرض ...

فالرد على ذلك من عدة أوجه :

(١) فتح البارى : ج ١٦ ، ص ٢٢٨ - ط الحلبي .

(٢) المرجع السابق .

أولاً : إن القائل (اصبروا) هو أنس رضى الله عنه ، فليس هو من الحديث المرفوع ، وإنما استنبطه منه ، وكل واحد يؤخذ من كلامه ويترك ما عدا المعصوم عليه السلام .

ثانياً : إن أنسا لم يأمرهم بـ (الرضا) بالظلم والفساد ، وإنما أمرهم بـ (الصبر) وفرق كبير بين الأمرين ، فإن الرضى بالكفر كفر ، وبالمنكر منكر ، أما الصبر فقلما يستغنى عنه أحد ، وقد يصبر المرء على الشيء ، وهو كاره له ، ساع فى تغييره .

ثالثاً : إن من لم يملك القدرة على مقاومة الظلم والجبروت ، ليس له إلا أن يعتصم بالصبر والأناة ، مجتهداً أن يعد العدة ، ويتخذ الأسباب ، معتصداً بكل من يحمل فكرته ، منتهزاً الفرصة المواتية ، لمواجهة قوة الباطل بقوة الحق ، وأنصار الظلم بأنصار العدل ، وضد الطاغوت بجند الله .

وقد صبر النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر عاماً فى مكة على الأصنام وعبادها ، فيصلى بالمسجد الحرام ، ويطوف بالكعبة وفيها وحولها ثلاثمائة وستون صنماً ، بل طاف فى السنة السابعة من الهجرة مع أصحابه فى عمرة القضاء ، وهو يراها ولا يمسه ، حتى أتى الوقت المناسب يوم الفتح فحطمها .

ولهذا قرر علماؤنا : أن إزالة المنكر إذا ترتب عليه منكر أكبر منه وجب السكوت عنه حتى تتغير الأحوال .

وعلى هذا لا ينبغي أن يفهم من الوصية بالصبر الاستسلام للظلم والطغيان بل الانتظار والترقب حتى يحكم الله ، وهو خير الحاكمين .

رابعاً : إن الصبر لا يمنع من قول كلمة الحق ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمام الطغاة المتألهين ، وإن لم تكن واجبة على من يخاف على نفسه أو أهله ومن حوله ، فقد جاء في الحديث : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » ، « سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله » .



حديث (خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم)

لقد استنبط بعض الباحثين المعاصرين من حديث « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » مقولة غريبة ، مضمونها : أن الإنسانية التى يحتضنها الإسلام تتقدم نحو ما هو أسوأ ، لا نحو ما هو أفضل ، وأنّ هذا التقدم إلى الأسوأ حتمى لا رادّ له ، وفقاً لهذا الحديث وأمثاله .

ولهذا يرجح أن هذه الأحاديث موضوعة مصنوعة ، إما لتبرير ما حدث بالفعل ، إذا فرضنا أن الواضعين هم مسلمون فعلاً ، وإما لتوجيه مسيرة الإسلام فى طريق اليأس ، إذا فرضنا أن الواضعين منافقون (١) .

والحق أن الحديث صحيح متفق على صحته بين علماء الإسلام ، لم يطعن عالم سنّى ولا معتزلى - فيما أعلم - فى سنده أو متنه ، بل ذكر ابن حجر والسيوطى وغيرهما من أئمة النقل أنه من المتواتر (٢) .

(١) انظر : أسس التقدم عند مفكرى الإسلام فى العالم العربى الحديث - للدكتور فهمى جدعان ص ٢١ ، وما بعدها - طبعة المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت .

(٢) انظر : نظم المتناثر فى الحديث المتواتر . للكتانى ، نشر دار الكتب العلمية ، بيروت ، حديث رقم (٢٤١) .

فاعتبار هذا الحديث موضوعاً : اتهام للأمة كلها بالجهل والغباء ،
وترويج الباطل ، واجتماعها على الضلالة طوال تلك العصور ،
وهذا مدخل لنسف الدين كله .

أما ما فهمه الباحث الفاضل من الحديث ، وما رتبته عليه من
نتائج ، فهو غير مسلّم له .

فالحديث إنما دلّ على فضل الجيل الذى تلقى عن رسول الله ﷺ ،
وتربّى فى حضانة النبوة ، وشاهد ما لم يشاهده غيره من آيات الله ،
ومن هدى رسول الله ، وحمله القدر من المهمات ما لم يحمله
غيره ، فهو الجيل الذى نقل القرآن للأمة ، وروى لها السنن ، وفتح
الله على يديه البلاد ، وهدى به العباد . ثم الجيل الذى تتلمذ على
هؤلاء الأصحاب ، واقتبس من مشكاتهم ، واقتفى آثارهم ،
والجيل الثالث الذى سار على دربهم واتبعهم بإحسان ، فرضى الله
عنهم ، ورضوا عنه .

ولا يشك دارس منصف أن (الإشعاع الروحى) لهذه الأجيال
القريبة من عهد النبوة الخاتمة ، كان من القوة والعمق والسعة ،
بحيث لا يلحقه جيل آخر ، وهذا فى الجملة لا فى التفصيل ، وفى
أمر الدين والتقوى لا فى أمر الحياة والعلم والعمران ، فهذه قد
تتفوق فيها الأجيال اللاحقة على الأجيال الأولى المفضّلة فى الالتزام
الدينى .

وقد بشر الرسول ﷺ أمته أنهم سيرثون ممالك كسرى وقيصر ،
وسينفقون كنوزهما فى سبيل الله ، وأنهم سيملكون المشرق والمغرب
يوماً ، وأن الرخاء سيبلى مدى لا يكاد يجد ذو المال يومها من يقبل
منه الصدقة ، وأن الأمن سيستتب حتى أن المرأة تخرج وحدها من
الحيرة بالعراق حتى تطوف بالبيت الحرام ، لا تخاف إلا الله ، وأن
أرض العرب ستعود يوماً مروجاً وأنهاراً . فهل يعتبر هذا كله
(تقدماً إلى الأسوأ) ؟ !

إن أى قارئ غير متعصب ولا متعسف للتاريخ يعلم أن الخلفاء
الراشدين بعد رسول الله ﷺ طوّروا كثيراً من أمور الحياة ، وأدخلوا
عليها تحسينات وإضافات لم تكن فى عصر النبوة ، وهم الذين أمرنا
أن نتبع سنتهم ، ونعصّ عليها بالنواجذ ، فهى امتداد للسنة النبوية
المطهرة .

وبعد عصر الراشدين وجدنا المسلمين فى عهد الأمويين والعباسيين ،
يبتكرون ويضيفون أشياء لم تكن فى العصر النبوى ولا العصر
الراشدى ، أقرّهم عليها علماء الأمة ، وانعقد الإجماع على
مشروعيتها .

ويكفى أن تم فيها استبحار علوم الدين واللغة ، وتدوينها
وتأصيلها ، وظهور المدارس العلمية والفكرية فى شتى أنواع العلوم
والآداب ، ثم اقتباس علوم الأمم الأخرى ، عن طريقة الترجمة ،
ثم تدارسها وإنضاجها وتهذيبها ، وإعمال يد التعديل والتحسين

والتحوير فيها ، بالحذف والإضافة والتغيير ؛ والتقديم والتأخير ، حتى تسجم مع المزاج العام للأمة ، وتتواءم مع دينها وقيمها وثقافتها ، وتجد لها مكاناً فى حياتها العقلية والوجدانية والاجتماعية . ثم ابتكار علوم جديدة كاملة ، لم يعرفها السابقون .

وفى هذا الإطار نشأت الحضارة الإسلامية الفارعة الرائعة ، ثابتة الأصول ، بأسقة الفروع ، وارفة الظلال ، مباركة الثمار .

ولم يتوقف المسلمون عن إبداع هذه الحضارة فى مختلف مجالاتها ، وشتى فروعها ، بدعوى أن هناك أحاديث تغلّ أيديهم ، أم تقيّد أرجلهم ، أو تشل تفكيرهم ، محتمة عليهم (التقدم إلى الأسوأ) !!

صحيح أن الأجيال المسلمة التى صنعت هذه الحضارة الشماء ، لم تكن فى شفافية جيل الصحابة وتلاميذهم من الناحية الإيمانية (الروحية) ، وهو أمر اعترف به الجميع ، ولكن هذا لم يقف حائلاً أمام تفوقهم العلمى ، وتقدمهم الحضارى ، وجهادهم الأخلاقى . بل وضعوا أخلاقيات ذلك الجيل المثالى نصب أعينهم ، باعتباره مثلاً إنسانياً أعلى ، وبذلك يجمعون بين الحسينيين أو يحاولون ذلك على الأقل : حسنة الإبداع الحضارى المادى ، وحسنة السمو الروحى ، والترقى الإيمانى والخلقى .

على أن هناك أحاديث أخرى تبين فضل الأجيال اللاحقة ، وتنوّه بصبرها وثباتها فى عصور الفتن والأزمات التى يمتحن فيها أهل

الإيمان ، وحملة رسالة الإسلام ، ويغدو القابض على دينه فيها كالقابض على الجمر . حتى ذكر الحديث أن للعامل فيها أجر خمسين ! قيل : منا أو منهم يا رسول الله ؟ قال : « بل منكم » (١) .

كما صحت أحاديث كثيرة تبشر بغد مشرق ، ومستقبل زاهر لدعوة الإسلام ، وملك واسع لدولته .

وصح الحديث كذلك أن الله يبعث فى كل مائة سنة من يجدد للأمة دينها ، وبذلك يتجدد أملها ، ويقوى رجاؤها ، فى صلاح الحال إذا فسد ، وقوة الدين إذا ضعف ، واستقامة الأمر إذا اعوج .



● استمرار الخير فى سائر أجيال الأمة :

وإيمان المسلم بفضل القرن الأول أو القرون الأولى لا يعنى أن باب الله قد أغلق أمام سائر القرون إلى يوم القيامة ، وأن الأجيال القادمة محرومة من استباق الخيرات ، فقد حازتها تلك القرون ، ولم يعد أمامها إلا الفتات إن بقى الفتات .

(١) رواه أبو داود فى سننه ، كتاب الملاحم برقم (٤٣٤١) ، والترمذى فى التفسير (٣٠٦٠) ، وقال : حسن غريب ، وابن ماجه فى « الفتن » (٤٠١٤) ، كلهم عن أبى ثعلبة الحشنى .

بل الحق الذى لا ريب فيه أن باب الله تعالى مفتوح للجميع إلى أن تقوم الساعة : واستباق الخيرات مأمور به لجميع الأمة فى كل العصور ، ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ (١) . وكم ترك الأول للآخر ، وكم فى الإمكان أبدع مما كان . وفى الحديث الشريف « مثل أمتي كالمنطر ، لا يدرى أوله خير أم آخره » (٢) .

يقرر الشراح هنا : أنه كما لا يحكم بوجود النفع فى بعض الأمطار دون بعض ، فكذلك لا يحكم بوجود الخيرية فى بعض أجيال الأمة أو أفرادها دون بعض من جميع الوجوه ، وفى هذا إيماء إلى أن باب الله مفتوح ، وطلب الفيض من جنابه مفسوح . فكل طبقة من طبقات الأمة لها خاصية وفضيلة ، توجب خيريتها ، كما أن كل نوبة من نوبات المنطر لها فائدتها فى النشوء والنماء لا يمكن

(١) المائة : ٤٨

(٢) رواه الترمذى عن أنس فى أبواب الأمثال (٢٨٧٣) ، وقال : حسن غريب ، ورواه أحمد والبخارى والطبرانى عن عمار بن ياسر ، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد : (٦٨/١٠) : ورجال البزار رجال الصحيح ، غير الحسن ابن قزعة ، وعبيد بن سليمان الأغر ، وهما ثقتان ، وفى عبيد كلام لا يضر ، ورواه البزار والطبرانى فى الأوسط عن عمران بن حصين ، وقال البزار : لا يروى بإسناد أحسن من هذا . المجمع : (٦٨/١٠) ، ورواه ابن حبان فى صحيحه عن سلمان ج ١٦ حديث (٧٢٢٦) ، وحسنه محققه بشواهده .

إنكارها . فإن الأولين آمنوا بما شاهدوا من المعجزات ، وتلقوا دعوة الرسول بالإجابة والإيمان ، والآخرين آمنوا بالغيب ، لما تواتر عندهم من الآيات ، واتبعوا من قبلهم بالإحسان . وكما أن المتقدمين اجتهدوا فى التأسيس والتمهيد ، فالتأخرون بذلوا وسعهم فى التقرير والتأكيد ، فكلّ ذنبهم مغفور ، وسعيهم مشكور ، وأجرهم موفور .

قالوا : والمراد هنا وصف الأمة قاطبة - سابقها ولاحقها ، أولها وآخرها - بالخير ، وأنها ملتحمة بعضها ببعض ، مرصوفة كالبنيان ، مفرغة كالحلقة التى لا يدرى أين طرفاها (١) .

والمسلمون فى كل مكان وزمان يردّدون هذا القول بوصفه حديثاً نبوياً : « الخير فىّ وفى أمتى إلى يوم القيامة » ومعناه صحيح ، وإن لم يرد بهذا اللفظ .

فقد صحت جملة أحاديث عن عدد من الصحابة تؤكد أن « لا تزال طائفة من هذه الأمة قائمة على الحق حتى يأتى أمر الله » (٢) ، وهو ما يتفق مع منطوق القرآن الكريم ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ (٣) .

(١) انظر ص (١٢٠) ، هامش ١ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب (الإمامة) ٥٣ ، والبخارى فى صحيحه ٦١ ، كتاب (المناقب) ٢٨ ، باب : ٦٣٢ / ٦

(٣) الأعراف : ١٨١

كما صحت أحاديث تبشر بمستقبل مشرق للإسلام ، تعلو فيه كلمته ، وتنتشر دعوته ، وتوسع دولته (١) .



● سنن وقواعد مطردة :

ولقد وضع لدى الأجيال المسلمة طوال القرون : أن ثمة مبادئ راسخة ، وقواعد ثابتة ، وسنناً مطردة ، من محكمات القرآن والسنة ، يحتكم إليها الجميع ، منها :

١ - أن لكل عمل ثمرة ، ولكل جهد جزاء ، فى الدنيا قبل الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ (٢) ، ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ (٣) .

٢ - أن الجهاد فى الله ، سواء كان جهاداً روحياً أم مادياً ، لا يهدره الله أبداً : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٤) .

٣ - أن من نصر الله نصره الله ، ومكّن له فى الأرض ، وإنما ينصر الله بالإيمان وعمل الصالحات ، والصالحات : كل ما تصلح به

(١) انظر صفحة (١١) ، هامش ١

(٢) الكهف : ٣٠ (٣) الأعراف : ١٧٠ (٤) العنكبوت : ٦٩

الحياة روحياً ومادياً ، وما يصلح به الإنسان فردياً وجماعياً . يقول تعالى : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (١) ، ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ (٢) .



الفهرس

الصفحة

٥ مقدمة
	المبشرات بانتصار الإسلام :
١٠	* المبشرات من القرآن الكريم
١٦ قصص الرسل وعاقبة المؤمنين والمكذبين
١٨ وعد الله بنصر المؤمنين
٢٠ وعد الله بإحباط كيد الكافرين
٢٦	* المبشرات من السنة النبوية
٢٧	١ - انتصار الإسلام فى العالم كله
٢٨	٢ - عودة الإسلام إلى أوروبا
٣١	٣ - اتساع دولة الإسلام فى المشارق والمغارب
٣٢	٤ - الرخاء والأمن وفيض المال
٣٣	٥ - عودة الخلافة على منهاج النبوة
٣٤	٦ - الانتصار على اليهود
٣٦	٧ - بقاء الطائفة المنصورة
٣٧	٨ - ظهور المجددين فى كل عصر
٣٨	٩ - نزول المسيح

٣٩	١٠ - ظهور المهدي
٤١	* مبشرات من التاريخ
٤٨	- فى حروب الردة
٤٩	- فى الحروب الصليبية
٥١	- فى حروب التتار
٥٣	- حروب التحرير فى العصر الحديث
٥٤	* مبشرات من الواقع
٥٩	بين الأمل واليوم
٦٦	استمرار حركة الأحياء والتجديد
٦٨	الصحوة الإسلامية وآثارها
٧٠	التيار الإسلامى أقوى وأرجح فى الميزان
٧٣	القوى التى تملكها الأمة
	* تحذيرات الأجانب من القوى المدخورة : فى الإسلام
٧٦	وأمرته
٨١	محن الدعاة
٨٣	* مبشرات من السنن الإلهية
٨٣	- سنة التداول
٨٦	- سنة التغيير
٨٩	وقفات لا بد منها

٩١ تنبيه على أمرين
٩٢ حسن البناء والأمل
	* أضواء على أحاديث أسيء فهمها :
١٠٧ حديث (بدأ الإسلام غريباً ...)
١٢٢ بشائر من القرآن بظهور الإسلام من جديد
 حديث (لا يأتى عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه)
١٢٤
١٣٢ حديث (خير القرون قرنى ..)
١٣٩ سنن وقواعد مطردة
١٤١ الفهرس

* * *

رقم الإيداع

١٩٩٦ / ٧٢٧٦

التوقيع الدولي. I.S.B.N.

977 - 225 - 098 - 5

سلسلة ترشيد الصحوة
للدكتور يوسف القرضاوى
تصدرها مكتبة وهبة تباعاً

● صدر منها

- ١ - الدين فى عصر العلم
- ٢ - الإسلام والفن
- ٣ - النقاب للمرأة .. بين القول ببدعيته .. والقول بوجوبه
- ٤ - مركز المرأة فى الحياة الإسلامية
- ٥ - فتاوى المرأة المسلمة
- ٦ - جريمة الردة .. وعقوبة المرتد .. فى ضوء القرآن والسنة
- ٧ - الاقليات الدينية .. والحل الإسلامى
- ٨ - المبشرات بانتصار الإسلام

* * *